رسالة الصاهل والشاحج

لأبي العلاء المعري

القسم الأول

عرض وتحليل

دكتور خليل ابراهيم أبو دياب

الأستاذ المساعد بالكلية

رسالة الصاهل والشاحج

لأبي العلاء المعري

القسم الأول

يعدّ أبو العلاء المعري أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي من أبرز أدباء العرب على مرّ العصور، وذلك لغزارة نتاجه، وتنوّع اتجاهاته، ولما يمتاز به أدبه من تنوّع أنماط الثقافات ووفرة عناصرها، امتيازا يتفرّد به، ولا يشركه فيه غيره من الأدباء على هذا النحو الذي نجده في تصانيفه المختلفة من مثل: اللزوميات ورسالة الغفران والفصول والغايات ورسالة الملائكة ورسالة الصاهل والشاحج ومعجز أحمد وغيرها.

ويمكن أن تردّ أسباب هذا الازدهار الثقافي في أدب شيخ المعرّة إلى سببين رئيسين:

<u>الأول</u>: قدرته البالغة على وعي ثقافات عصره، وقد ساعده على ذلك برغم فقده بصره طفلا، ذكاء حاد وحافظة عجيبة وذاكرة نادرة، أسهمت جميعها في اكتناز تلك الثقافات. ومن يرجع إلى أقوال مؤرّخيه من خلال كتاب «تعريف القدماء بأبي العلاء» يجد ما يؤكد هذه الحقيقة، ويدفع كل ما يمكن أن يتساقط عليها من شكوك. ونكتفي منها بما ذكر تلميذه الخطيب التبريزي من أن العرب لم تنطق بكلمة إلاّ عرفها الشيخ[١]. ونقول بعد ذلك غير مغالين أن العرب لم تنطق بكلمة إلا استعملها الشيخ في أدبه. ويخبرنا أبو العلاء صادقا عن سرّ هذا التنوّع والغزارة في أدبه فيقول: «ما قرأت شيئا إلاّ حفظته، وما حفظت شيئا فنسيته»[٢] . وطبيعي لمن يحفظ فلا ينسى أن يمتاز ادبه بهذا التنوع الثقافي الذي نجده ماثلا في أدب أبي العلاء.

---

(١) ابن العديم: الانصاف والتحري ص ٥٦٩ من التعريف.

(٢) ابن العديم: الانصاف والتحري ص ٥٢٤ من التعريف.

أما السبب الثاني : فهو التفاعل العميق بين أبي العلاء وبين ثقافاته التي وعاها ونقصد بالتفاعل الثقافي القدره على استغلال عناصر الثقافة واستخدامها استخداما فنيا طريفا لا يحسّ معه القارىء تكلّفا، ولا يأنس فيه تصنّعا. فلم تكن ثقافات أبي العلاء في أدبه مجرد ألوان أو أصباغ زاهية توشّي أدبه، وتزوّق أفكاره، وإنما كانت، إلى جانب ذلك، تتغلغل في أعماقه، وتتخلّل نسيجه، بحيث يعجز القارىء عن فصلها عن أدبه، وتجريده منها، لأنها لو فصلت مات أدبه، وفاضت روح أفكاره ولغته.

وقد تعددت اتجاهات أبي العلاء الثقافية والأدبية فوضع في الشعر العمودي سقط الزند، وفي الشعر الفلسفي اللزوميات، ووضع في النثر الكتب العلمية في بعض علوم اللغة كالنحو والصرف والعروض. والأدبية مثل رسالة الغفران والفصول والغايات ورسالة الصاهل والشاحج التي سنقف عندها في هذه الدراسة، وغير ذلك من المصنفات التي ضاع أكثرها، وعثر على أقلها.

وإذا رجعنا إلى مؤرّخي أبي العلاء نجد أن بعضهم عني بسرد مصنفاته التي وضعها وقد ذكروا من بينها «رسالة الصاهل والشاحج» ونراهم يقولون إنها على لسان فرس وبغل ومقدارها أربعون كراسة[٣].

وبعضهم يؤكد أنه رآها ضمن ما رأى من مصنفات شيخ المعمرة.[٤]

ولعل أوفى اشارة الى هذه الرسالة، وإلى مَنْ صُنِّفَت له ترد عند ابن العديم ـ مؤرخ أبي العلاء ومؤرخ حلب ـ حيث يقول في « الانصاف والتحري» وهو يسرد أسماء مصنفاته: «وكتاب يعرف برسالة الصاهل والشاحج، يتكلم فيه على لسان فرس وبغل، وهو كتاب حسن، صنفه للأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك الرومي، مولى منجوتكين العزيزي. وكان أبو شجاع هذا والي حلب من قبل المصريين في أيام الحاكم وبعض أيام

(٣) أنظر: القفطي ٦٢، ياقوت ١٥٩، الذهبي ٢٠٢، الصفدي ٢٧٤.. من التعريف.

(٤) القفطي ٦٧. من التعريف.

الظاهر، وكان سبب تصنيفه أنه رفع إلى فاتك أن حقّا يجب له على بعض أقرباء أبي العلاء، وجب على ابي العلاء سؤاله فيه. مقداره أربعون كراسة»[٥].

ويستفاد من هذا النص القيّم أن أبا العلاء صنّف رسالة الصاهل والشاحج لعزيز الدولة أبي شجاع فاتك الرومي، والى حلب للفاطميين، وأنه صنفها للسؤال في حق يجب للعزيز على أرض لبعض أقربائه، كما يذكر بعض المؤرخين أسماء الكتب التي صنفها أبو العلاء لعزيز الدولة هذا، ومنها تفسير لطيف لهذه الرسالة باسم «لسان الصاهل والشاحج» مقداره ثماني عشرة كراسة. وكتاب «القائف» على معنى كليلة ودمنة، وقد ألف منه أربعة أجزاء، ثم قطع تأليفه لموت صاحبه الذي أمر بانشائه.[٦].

وهذه الكتب الثلاثة وضعها المعري قبل سنة ٤١٣ هـ وهي السنة التي قتل فيها عزيز الدولة المذكور.

وعلى الرغم من وضوح عبارة ابن العديم ووثاقته، بصفته مؤرخا لأبي العلاء ولحلب ـ بيئته ـ، وتنبيهه على أنه شخص آخر غير عزيز الدولة ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس، فقد ثار جدل وخلاف حول هذه القضية، وحدث خلط بين الأسمين عند بعض من تعرضوا لدراسة أبي العلاء. وقد يعذر الباحثون في هذا الجدل والخلاف لو أن ابن العديم لم يحل القضية على الوجه الذي رأينا، ولم يزل الخلط واللبس بينهما، خصوصا وأن الرسالة كانت في حكم المفقودة. وقد كان المستشرقون أوعى من مؤرخينا حيث اعتمدوا على نص ابن العديم في نسبة الرسالة الى فاتك الرومي.

على أن الرسالة ضمت عبارة توضح الفرق بين هاتين الشخصيتين وردت على لسان الثعلب فيما نقل من أخبار جفلة الناس في حلب وما يجاورها خوفا من الروم الذين مهدوا لغزوها، وهي أن السيد عزيز الدولة، رغبة منه في إيناس الرعية، كَلّفَ أسَد الدولة صالح

(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ٥٣٢.

بن مرداس الكلابي أن يحمل الى حلب والدته الرباب إيثارا لسكون الأنفس، وإعلاما للسواد الأعظم بالتئام الكلمة، والتضافر على صدّ الأعداء»(٧).

وقد وقفت الدكتورة بنت الشاطيء عند أقوال الباحثين الذين تعرّضوا للحديث عن الرسالة، فناقشت آراءهم في حضور الرسالة ، وفي حضور نصوص ابن العديم، فكانت أقرب إلى الدقة والصواب من غيرها.

بيد أن هذا لا يمنع أن تكون هي الأخرى قد انجرفت في تيار الباحثين خصوصا عندما أكّدت أن قول مؤرخي أبي العلاء أنه صنف هذه الرسالة لعزيز الدولة يوهم أن أبا العلاء تطوّع من تلقاء نفسه بتصنيف كتابه لوالي حلب على سبيل الأهداء والتكريم..(٨)

والحق أننا لا نجد في أقوال المؤرخين ما يوهم بذلك من قريب أو بعيد، كما وهمت الباحثة. وقد تكون محقّة في مناقشتها لرأي الدكتور طه حسين الذي زعم أنه كتبها لوالي الفاطميين الذين كان يكرههم على سبيل التقية والتقرب والمداراة، حتى يسلم من أذاتهم الدينية، والتي سلم منها بالفعل، مؤكدة أنه لو كان ذلك صحيحا لما سلمت كتبه التي كثر حولها الشك والنقد من الضياع بعد سقوط حكم العبيديين والمرداسيين الذين كانوا وراء سلامته إبّان سلطانهم(٩).

وكنا نظن القضية بسيطة وغير ذات خطر ما دام ابن العديم قد أكد لنا أن أبا العلاء قد صنفها لعزيز الدولة أبي شجاع فاتك الرومي الذي ولي حلب للفاطميين ما بين رمضان ٤٠٧ وربيع الآخر ٤١٣ هـ عندما قتل. وهي بالفعل بسيطة لو أن الرسالة ظلت مفقودة، لأننا لا نملك من النصوص التاريخية ما يعين على تحديد تاريخها الدقيق. وهي فترة طويلة لا يعقل أن يصنف فيها هذه الرسالة وحدها، ولا حتى ما تبعها من كتب، كما

---

(٧) رسالة الصاهل والشاحج ٥٢٠ تحقيق بنت الشاطيء ط دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٥.

(٨) رسالة الصاهل والشاحج ص ٢١. من مقدمة التحقيق.

(٩) رسالة الصاهل والشاحج ص ٢٢ ـ ٢٣.

رأينا، خاصة وأنها ذات غرض محدد لا يحتمل التأجيل أو التطويل. ولما عثر على الرسالة أصبح للباحثين موقف آخر أكثر دقة وتحديدا، حيث رأوا من خلال النصوص والاشارات التي وردت في الرسالة أنها قد كتبت بالفعل حول سنة ٤١١، وربما في أوائل سنة ٤١٢ هـ[١٠] لان الحاكم بأمر الله قتل فى ٢٧ من شوال سنة ٤١١ وكان قد وجه بجيوشه الى عزيز الدولة لعصيانه عليه وضربه الدرهم والدينار باسمه في حلب، ودعائه لنفسه على المنبر. «فلما بلغ عزيز الدولة ذلك أرسل إلى بسيل ملك الروم يستدعيه ليسلم اليه حلب، فخرج بسيل الملك، فلما بلغ موضعا يعرف بمرج الديباج بلغ عزيز الدولة مقتل الحاكم، فارسل الى بسيل يعلمه أنه قد انتقض ماكان بينهما من الشرط[١١].

وهذا التحديد يمكن أن نجد له شواهد وأدلة تؤكده من الرسالة، فقد ورد على لسان الثعلب «أن المرجفين من أهل ملة العدو يزعمون أنه ـ ملك الروم ـ يؤخر خروجه الى الشتاء. وأحلف أن كان عزم على الخروج في الربيع ثم أنكسر عن ذلك، أنها لأول هزيمة»[١٢].

وإذا كان هذا الكلام قيل وكتب في حينه، فانه يعني أن ملك الروم حاول الخروج في فصل الربيع من سنة ١٠٢١م، وبمقارنة التقاويم الميلادية بالهجرية يتبين أن سنة ٤١٢ هـ تبدأ في ١٧ ابريل ١٠٢١م، وهذا يدل على أنه حاول الخروج في مطلع هذا العام، أو قبله بقليل ونرجّح المطلع لأنه أرجأ خروجه إلى الشتاء، وفي هذه الفترة تكون آثار الشتاء لا تزال باقية، ولا يعقل أن يرجئه إلى فترة طويلة تزيد على سبعة أشهر في مثل هذا الوقت الحاسم، وهو قد بدأ الخروج فعلا كما تنص الرسالة[١٣].

ولو أسعفنا المؤرخون لتلك الفترة بتاريخ دقيق لاتفاق الظاهر مع عزيز الدولة، أو

---

(١٠) نفسه ٢٧، وانظر د. أمجد الطرابلسي: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق جـ٢ مجلد ٤٩ ص ٣٨.

(١١) ابن العديم: تاريخ حلب ٢١٨/١.

(١٢) الرسالة ٥٣٩.

(١٣) الرسالة ٤١٥.

بعبارة أدق، التظاهر بالرضا عنه، لأمكننا أن نحدد فترة كتابة الرسالة بدقة تامة. على أية حال، فحسبنا ما انتهى إليه الباحثان الفاضلان في هذا التاريخ.

وكنا نظن عند بلوغنا هذه الغاية أن قضية تاريخ كتابتها قد انتهت الى غير عـود، ولكننا فوجئنا باشارات ونصوص في الرسالة أعادت القضية جذعة. ونود أن نستعرض هذه الاشارات المتنوعة، ثم نعرض تعقيبنا عليها بما قد يضيء هذه القضية ويحلّها.

فقد ورد على لسان أبي أيوب «الجمل» وهو ينكر مزاعم الشاحج «البغل» هذه العبارة: « ولم يكفك ما ادعيته من الكذب حتى ادعيت أن الدجال قد ظهر منذ سنين في أعمال السيد عزيز الدولة»(١٤).

ونفهم من هذه العبارة أنها تقرب من التاريخ الذي انتهى اليه الباحثان الجليلان، وأن هذه السنين المشار اليها تقع ما بين ٤٠٧ ـ ٤١١.

وثمّة اشارة أخرى وردت على لسان الثعلب فيما نقل من أخبار للشاحج، من أن عزيز الدولة، رغبة منه في إيناس الرعية، كلف أسد الدولة أن يحمل والدته الرباب إلى حلب إيثارا لسكون الأنفس، واعلاما للسواد الأعظم بالتئـام الكلمـة، والتضافـر على صدّ الأعداء(١٥).

وقد أشار ابن العديم إلى هذه الجفلة، وكاد يذكر عبارة المعري السابقة بنصّها في أحداث سنة ٤٠٨ من تاريخ حلب. ونراه يسمي جفلة أخرى، جفلة عزيز الدولة، لأنها كانت بسببه، وهي تلك التي وقعت في سنة ٤١١ هـ، بعد اعلان العصيان على الحاكم بأمر الله وتسييره الجيوش للقضاء عليه، مما اضطرّه الى استدعاء بسيل لتسليمه حلب كما أسلفنا .

(١٤) الرسالة ٣٢٠.

(١٥) الرسالة ٥٢٠.

ومن هذا يتبين لنا أن الرسالة أشارت إلى جفلتين متباعدتين في التاريخ، إذ يفصل بينهما زهاء ثلاث سنوات. ولا نظنّ القضية تزداد تعقيدا بهذه الاشارة، إذ يمكن التوفيق بينهما، وذلك أن الجفلة الأولى التي أشار اليها ابن آوى وابن العديم كانت ابّان علاقة عزيز الدولة الطيبة بالفاطميين وبعد توليه حلب بوقت قصير، وهي من آثار الصراع الحربي بين المسلمين والروم، ولم يرسل فيها، بطبيعة الحال، إلى ملك الروم يستدعيه ليسلم اليه حلب. أما الجفلة الأخرى فهي التي حدثت بعد فساد ما بينه وبين الحاكم، فاضطرّ الى الاستنجاد بملك الروم عندما توجهت جيوش الفاطميين الى حلب. ولـذلك أسماها ابن العديم » جفلة عزيز الدولة».

ومن هذا يتبين أن أخبار الجفلة الأولى قد تداخلت في أخبار الجفلة الثانية التـي حدثت في أواخر أيام الحاكم وأوائل أيام الظاهر، وبعد عودة الوفاق الموهوم بينهما، مما اضطرّه أن ينقض اتفاقه مع ملك الروم.

ولسنا ندري لتداخلها سببا، إن لم يكن التداعي الفكري، فالشيء بالشيء يذكر.

وقضية أخرى ثارت بين الباحثين حول هذه الرسالة، وهي سبب تأليفها. ولكنها أيسر من سابقتها وأوضح بفضل ابن العديم، كما رأينا في النص السالف الذكر. وهذا بعينه ما أشار إليه أبو العلاء مع شيء من التفصيل، مركزا على أنه اضطرّ لكتابتها تحت إلحاح بني أخيه ردّاً لبعض ما لهم من فضل عليه، مظهرا تحرّجه من مكاتبته في مثل هذا الأمر الهينّ، ونراه يعتذر الى العزيز بأنه أشار عليهم بترك هذا الأمر، ولكنهم أصرّوا على أن يسأله فيه، «وقد وصلوا بهذه الرسالة رقعة يرجون بها من اليد العالية توقيعا مؤبّداً لا يكون بعده القول مرددا، بل يحسم بإيجاب طمع كل ناظر وجاب [١٦]».

واذن فالرسالة، كما نرى، كتبت للسؤال في حق أبناء أخيه في تلك الأريضة، كما وصفها.

---

(١٦) الرسالة ٨٤ ـ ٩٠.

ولكن يبرز سؤال حول هذه القضية، وهو: هل كتبت الرسالة كاملة بصورتها الراهنة، وأرسلت برفقة الرقعة الخاصة بالأرض، أم أنها كتبت مستقلة فيما بعد، وأرسلت الى عزيز الدولة؟.

ويبدو لأول وهلة أنه لا محل لهذا السؤال، ولكن الذي دفعنا اليه ما أثبته أبوالعلاء في خاتمتها من انه كتب الرسالة شكراً لعزيز الدولة على قبول وساطته وتحقيق مسألته فاراد أن يشكره فاختار هذه الطريقة لتكون أبقى على الزمان، يقول: «وكان محمد بن عبدالله بن سليمان ـ أبوالمجد، الشقيق الأكبر لأبي العلاء ـ ورد من الحضرة العالية موقَّرا بالمنن، فأراد أن يشكر، فغرق في الاحسان، فصمت صمت الغريق، فذهبت لأعينه فأعداني بالغرق، فاستعنت أفواه الحيوان ليدوم شكرها في كل أوان، وجهزت هذه الرسالة[١٧].

ويفهم من هذه العبارة أنه كتب الرسالة ليشكر عزيز الدولة على فضله في قبول وساطته، وتحقيق مسألته.

ولكن كيف نوفق بين هذا وبين قوله في بداية الرسالة، وهو يذكر حاجته، وهي الصفح عن حقّه على تلك الأرض، خصوصا وهو يشير في أثناء ذلك، كما رأينا، إلى أنه ضمّن رقعتهم رسالته هذه[١٨]؟

أغلب الظن أنه لم يكتب الرسالة كاملة أولا، وإنما كتب جزءا منها هو الذي ضمنه مسألته في الأرض مع رقعة أبناء أخيه، أو أنه قد يكون كتب رسالة أخرى خاصه بغرضه غير هذه الرسالة؛ ولما رجع أخوه موقّرا بالمنن كما يقول، أراد أن يشكر العزيز، فكتب هذه الرسالة الكاملة، التي بين أيدينا، وأهداها إليه، ومن ثمّ تتابعت مصنفاته التي ذكرناها. ومن غير المعقول أن ينتظر أبناء أخيه حتى يفرغ من إنشاء الرسالة كاملة ثم يذهبوا بها إلى العزيز. لذلك نرجح أن يكون كتب رسالة أخرى موجزة ضمنها رقعة المسألة، ثم أشار اليها بتفصيل يتناسب ورسالة الصاهل والشاحج مرة أخرى، وكانت

---

(١٧) الرسالة ٧٠٨.

(١٨) الرسالة ٨٨.

مدخلا طريفا ومناسبا لاستعانته أفواه الحيوان ليدير هذا الحوار الطريف الذي بنى عليه الرسالة كلها كما سنرى.

ويضيف بعض الباحثين سببا آخر الى هذا السبب الذي كان وراء إنشاء الرسالة، وهو أن أبا العلاء كان ما يزال يرغب في الاتصال بعزيز الدولة منذ أرسل اليه يستقدمه إلى حلب [١٩]. ولا يسعنا أن نقبل هذا الرأي؛ لأننا نعرف من أقوال أبي العلاء وأخباره كان زاهدا في تلك المجالس منذ أن صدّت عنه بغداد، وعزم على لزوم بيته، وحكم على نفسه بالسجن المؤبد فيه. فكيف يرغب اذن في لقاء عزيز الدولة أو غيره من حكام حلب وغيرها، وهو الذي زهد في لقائهم، فضلا عن كراهيته للعبيديين والفاطميين؟ وحتى في اعتذاره لكاتبه أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي لا نستشف منه إلا الاصرار على اعتزال الناس، ومنهم عزيز الدولة الذي كان يرغب أشد الرغبة في تواجد أبي العلاء في بلاطه. وإذا كان أبو العلاء راغبا في ذاك، فما الذي كان يمنعه منه؟ وهل من يرغب في الاتصال بعزيز الدولة يعتذر له بأنه موصوف بالعلم وهو من عاطل، ويؤكد له أنه لا يصلح لمجالسة النظراء، فكيف ينتدب للقاء السادات الكبراء؟، وأن عزيز الدولة «يعين الكسير بالجبر، فكيف يأمر باخراج ميت من قبر؟»[٢٠].

ولا يعقل أن يقول مثل هذا القول راغب في الاتصال بعزيز الدولة أو غيره، بل لا يقول هذا إلا زاهد في لقائهم ، معتذر عن اصرارهم في تواجده في بلاطهم. ثم انه لو كان راغبا في ذلك لما لزم بيته، وقرّر مقاطعة هؤلاء الحكام خاصة والناس عامة. ومثل هذه العبارات [٢١] ليست أكثر من اعتذار مهذب لاعتزاله ورغبته الأكيدة في عدم مخالطة تلك البلاطات والحواشي، لأنها لا تناسب من هو في مثل رهافة احساس أبي العلاء وشدَة حيائه الذي منعه من أن يَتَكَسَّبَ بشعره شأن شعراء عصره على الأقل. فهو خلق من طينة غير طينة الشعراء المدّاحين، وقدّ وجهه من غير الأديم الذي قدّت منه وجوههم.

---

(١٩) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق جـ٢ مجلد ٤٩ ص ١٠.

(٢٠) رسائل أبي العلاء تح مرجليوث ٥٩ ـ ٦١ ط أكسفورد ١٨٩٨.

(٢١) رسالة الصاهل والشاحج ٢٤١. حيث يقول: «وبعض من لا يعرفه من العامّة يظنّ انه من أهل العلم. كذبت الظنون، لو كان كذلك لولب (دنا) من حضرة السيد عزيز الدولة... لأنه كما قيل في المثل: لا مخبأ لعطر بعد عروس. ولكنه ، المسكين، لا يبهج لثناء يكذب عليه».

عرض سريع لمضمون الرسالة

بدأ أبوالعلاء بتوجيه تحيته الى عزيز الدولة، وقد صوّر فيها مكانته بالقياس الى مكانة العزيز، أو ما أطلق عليها «الحضرة العالية» وهي مكانة متباينة توصل لوصفها بمجموعة كبيرة من الأمثال تكشف عن سبب انعزاله عن بلاطه، وابتعاده عن حاشيته، ويغلب على وصفه الاسراف فى المبالغة حتى لنراه يذوب تواضعاً عند مقارنته نفسه بالحضرة العالية، فيخيّل إلينا أنه يحمل سخرية شديدة ممضّة بهم، لولا ماعهدناه من دأب الشيخ على إعلان تواضعه في أدبه. ثمَ يدلف إلى إعلان غرضه من كتابة رسالته بصراحة ووضوح. فيذكر أنه كتبها وفاء لما لأبناء أخيه من دين فى عنقه. وفضلهم عليه فى خدمتهم له، وأنه لم يقدر على غير إجابتهم إلى سؤالهم. ويذكر له أن لهم أرضا وجب عليها حقّ للخزانة العامرة، وهم فقراء عالة لا يقدرون على أدائه، وقد كلّفوه سؤاله فيه، وجهد فى ردهم عن غايته، ولكنه لم يفلح في الاخلال به لفضلهم عليه، وأبوا إلا مسألته، لأنهم لا يحملون ظلما أو غرما كان موضوعا عنهم فيما سبق. ويصرّح عن أملهم فى الحصول على أمر كتابي منه. «ويرجون بها من اليد العالية توقيعا مؤيدًا، لا يكون بعده القول مردّدا، بل يحسم بإيجاب طمع كل ناظر وجاب». ثمّ يعرض عليه صورة تلك الأرض، أو كما يسميها «الأريضة» ويتفنن في إبرازها تفنّنا رائعا، فهى ارض قفر قليلة الغرس والثمر، لا تعود بالخير على أحد، وماؤها شحيح غائر تجهد تلك البهيمة، «الشاحج» ـ البغل ـ في إخراجه، وكأنها في سفر لا ينفد، وعذابها يتجدّد، ولا يقنع لها القدر بالأين، حتى يأمر بتخمير العين، يُكفّ بصرها عند الفجر، فتنظر إلى القمر دون الشمس، ويومها في الشقوة نظير الأمس»، حتى أنه لاينعم بالماء الذي يجهد في إخراجه. وبرغم ماينغمر فيه من بؤس وشقاء، فهو سعيد بما يتمتع به من صبر وطّن عليه نفسه. ويجد أبوالعلاء ذلك مناسبة لطيفة لبناء الرسالة،، وتكوين شخوصها المسرحية، فيمهد لقيام حوار طريف بين الشاحج وبين الصاهل «الفرس» الوارد على الماء، وهو حوار يكشف عن اسلوبه، ولكنه قد يثير اعتراضا، فيفزع إلى آيات من القرآن الكريم يستند اليها في اثبات مثل هذا الحوار بين البهائم والانسان، لأن تلك البهائم والدواب أمم أمثالنا، وما دامت مرتبطة بقدرة الله التي أمكنت النملة والهدهد من الحديث أمام سليمان عليه السلام، فهي قادرة على مثل هذا الحوار بين الصاهل والشاحج.

ويتأزّم الحوار منذ البدء بينهما لما يدّعيه الشاحج من واشجة قربى تربطه بالصاهل، فنراه يهتبل فرصة وروده على الماء ليفتخر بتلك الخئولة «وفرض على المنتسب عرفان الخال، ولا سيما إذا كان صاحب الشرف دون الأب، وإذا افتخر رقيم بسعد، وعمرو بجذيمة، فإنه غير متعدّ»(٢٢). ثم يسأله عن مبدأ سفره، وعن محرده أو مقصده، فيخبره الصاهل أنه قدم من مصر قاصدا عزيز الدولة الذي يشيد بمكانته وفضله، ويتغنّى بكرمه وأدبه وعدله، فيغريه ذاك الاطراء أن يعرض عليه أن يحمل منه رسالة الى عزيز الدولة، وعسى أن يخفّف عنه بعض ما يؤوده من الأثقال «وقد عزمت يا خالي أن استودعك رسالة الى حضرة هذا الأمير لتذكر بي ولاة العدل (فان الذكرى تنفع المؤمنين)، لعل علاوة تحطّ عن فودي مثقل، ونزعا بالغرب يخفّف عن خابط عضه، وراحة ينالها المتعب في النهار والظلم، وعينا تطلق من السجن الدائم فتبصر الوضح».

ويمضي في تصوير مايلاقي من ألوان الشقاء والبؤس من الناس الذين يحرمونه من الراحة، حتى في يوم العيد الذي فرح فيه سائر الخلق يعيرونه الي صبيّ من عرمة الصبيان، يسوسه بقسوة، ويتفنن في تعذيبه ، ولولا خشيته من الله، ورهبته من العاجل من العقوبة وخوفه دعاء أمه الصالحة لوطيء رأس الصبي عندما عثربه. وكذلك يشكو من سور سائسه الكسول العسوف الذي ينازعه عباءته ويتركه نهبا للبرد يمارس مرة الاشهبين ويرغب فى أن تكون شكاته من بيتين من الشعر أو ثلاثة لاهمية الشعر وسرعة حفظه من جهة ولانه ينفق عند العزيز لاهتمامه بالشعراء من جهة أخرى. ويركّز على حقه عند الصاهل بما يربط بينهما من صلة الرحم، مما يوجب عليه نقل رسالته وتبليغها.

بيد أن الصاهل يانف من هذا الادعاء، ويترك تلك الخئولة بشدة، متوسلا بمختلف الأمثلة التي تدل على خطل ادعائه، وتثبت فساد رأيه، وتدحض نسبه المزعوم، وتكشف بعد مابينه وبينه، ومكانة كل منهما في الناس، ويستطرد الى وصف سوء معاملة الناس للحيوانات ومنها البغل والحمار، ويجره ذاك الى معركة المصير بين الثور والكلاب

(٢٢) رقيم المحاربي وخاله سعد بن معاذ الأنصاري الخزرجي، وعمرو بن عدي اللخمي أمه رقاش أخت جذيمة الأبرش ملك الحيرة الذي قتلته الزبّاء ملكة تدمر، وثأر له ابن أخته عمرو الذي ورث عنه الملك وأسس ملك المناذرة.

الضارية، وبين الوعل والحمار وبين الصائدين. وهو يهدف الى مواساة الشاحج فيما يجد من سوء المعاملة. وأبو العلاء في كل ذلك يستعرض ما اختزنته ذاكرته من أشعار القدماء. ويعود الصاهل الى ذكر فضائله، واكرام العرب له، ليؤكد فضله ومكانته على الشاحج وغيره من البهائم؛ ويعلن رفضه توصيل رسالته الى العزيز. ويحاول الشاحج الدفاع عن نفسه والردّ على ادّعاءات الصاهل، وعزمه على اجابته، ولكنه يقتنع بأن السكوت خير جواب على ازدرائه واحتقاره له. وينتهي بهذا، المشهد الأول ليبدأ المشهد الثاني في الصباح، حيث يحيّي الشاحج الصاهل، ويبدأ معه حواريّة جديدة نستشف منها ندمه على سكوته عن الرّد عليه، فيشرع في الدفاع عن نفسه، وخئولة الصاهل له التي أنف منها، مدعّما رأيه بأدلة وأمثلة كثيرة، ويحذّره من مغبّة غروره، وعاقبة كبريائه. وهو في أثناء ذلك يميل إلى الاستطراد الواسع في ذكر أخبار الشعراء وغيرهم، نحسّ فيه تماديا من الشاحج في ادعاءاته الغريبة، فيعلن عن رغبته في إلقاء مسألة على من بمجلس عزيز الدولة من العلماء والفقهاء والأدباء ليشغلهم سحابة ليلتهم. وهي قضايا جدلية بحته، يوجّه أولاها الى الفقهاء فيقول: «كنت أقول للفقهاء: ماذا تقولون في رجل طاف بالكعبة سبعاً وهو ينشد : «قفا نبك» ماذا توجبون عليه؟ فاذا أجابوا فرّعتها عليهم، وقد علمت أن الضحضاح بعده الغمر، وأن الدخان تحته اللهب والجمر.

وكنت أقول للمتكلمين: أخبروني عمن يقول بقدم العالم: أ «قفا نبك» كانت قبل امرئ القيس أم بعده؟ وأخبرونى عن «قفا نبك»أجوهر هي أم عرض؟، فإن قالوا: جوهر، فقد أحالوا في رأي المتكلمين، وإن قالوا : عرض، قلت: فالأعراض لا قوام لها في أنفسنا، وإنما تعرف إذا تعلقت بالجواهر، وقد تجد رجلين يقفان على ضَيفَي واد، وبينهما مدى بعيد، فينشد أحدهما: «قفا نبك» فيسمعه الآخر، فبم تعلقتَ حتى وصلت إليه؟ ثم أشجر الكلام وأشجنه.

وكنت أقول للشعراء: أخبروني عن ثلاثة منكم أحضرهم السيد عزيز الدولة وتاج الملة، أمير الأمراء ـ أعزّ الله نصره ـ وكان أحدهم من قرىّ «قفا نبك» في دقيقة، والآخر في دقيقتين، والثالث في ثلاث دقائق، فأمرهم أن يصنعوا بيتا على ذلك العراق،

ويتعاطوا فيه النصفة، أكان هذا يمكن أم يتعذر؟ وهل تجري الأبيات كلها مجرى واحد، أم تختلف باختلاف هيئات الحروف؟ فإن حملهم ادّعاء الرتبة، والفرار من حياء الغلبة على أن يقولوا: كنا نتناصف ونتماثل ونجيب السيد عزيز الدولة.. الى ما أمر. قلت لهم: فكم المدة التي ينجز معها فراغ البيت؟ فإن قالوا: لا نعلم، فقد رجعوا عن دعواهم وأقروا بالعجز لمن سألهم. وإن قالوا: نعمله في ستة أجزاء من أحد عشر من دقيقة: يعمل الذي جرت عادته أن يعمل البيت في دقيقة ستة أجزاء من أحد عشر من البيت. وكان يعمل صاحب الدقيقتين ثلاثة أجزاء من أحد عشر، وكان يعمل صاحب الثلاثة جزئين. قلت: كيف السبيل كيف السبيل الى تناصفكم في هذه القسمة، وقد علمتم أن أحد عشر «عدد أصمّ؟ وهل في طاقتكم، أو طاقة غيركم قسمة الحرف الواحد أو الحركة، على هذه الأجزاء؟ ثم يتنوّع الخطاب في ذلك الى ما شاء الله»(٢٣).

ثم يدافع عن صوته الذي اتهمه الصاهل بعدم صلاحه ومناسبته للشعر، لأنه حمحمة وشحيج، ولا يبنى منهما النظام، فيبين له أن الأشياء لها جمل، والجمل لها تفصيل، والتفصيل له تأويل، واذن فهو يمكن أن يؤوّل. ويضرب على ذلك التأويل أمثلة، كما تأول علي ابن أبي طالب صوت الناقوس، وكما تأول عدي بن زيد العبادي قول الشجرة للنعمان بن المنذر. حتى الصمت يمكن أن يؤول كما في قول الحارثي:

فأسمعنا بالصمت رجع كلامنا ::: فأبلغ به من ناطق لم يحاور

ويتحفنا أبو العلاء بجدليات ممتعة بين الشاحج والصاهل حيث يأخذ عليه فيها ادعاءه النظم وتعاطي العلوم المختلفة، مؤكدا له جهله بها جميعا.

وقد بلغا من الجدل والنقاش مرحلة يصعب معها الاستمرار، فيطلب الصاهل حكما يفصل بينهما غير الضبّ، قاضي البهائم الحصيف المشهور بحكومته وعدله، لبعده عنهما، ويرى أن يكون «الفاختة» التي كانت قد وردت الماء لتشرب، وكانت على مقربة منهما

(٢٣) ضيفا الوادي: جانباه. أشجر: أدخل بعضه على بعض فيختلط ويكثر النزاع حوله. أشجنه: شجن، أي جعله ذا شجون أي فنون وأغراض متنوعة متشعبة. العراق: النمط. النصفة: الأنصاف.

تسمع حوارهما وترقب نزاعهما. ولكن الشاحج يرفض حكومتها لاشتهارها بالكذب لأن العامة تضرب المثل بكذبها فتقول «اكذب من فاختة». كما يرفض حكومة الغراب لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لعنه. وكذلك الزرياب لصرعه. ويطلب منه أن يعدل في اختيار الحكم عن ذوات الجناح إلى ذوات الأربع. وكأنّ أبا العلاء هنا يمهد لدخول شخصية أخرى على مسرح الرسالة، وهي شخصية الجمل «أبي أيوب» للاشتراك في الحوار واختفاء الصاهل والفاختة، ولكنه لا يدخله إلى المسرح إلاّ بعد استطراد طويل يمتلىء بالجدل والحجاج والسفسطة بين الصاهل والشاحج حول حكومة الفاختة والبعير وغيرهما من ذوات الجناح وذوات الأربع، والاّ بعد حركة درامية رائعة يحرص عليها حينما يجعل الفاختة تؤيد مزاعم العامة والشاحج فيها، واتهامهم اياها بالكذب، فيجعلها تعكس شهادة الشاحج في أبي أيوب، فترفّ عينها للصاهل تغمز على الشاحج، وهو لا يراها، لأنه معصوب العينين، وتنطلق إلى البعير لتجعل القول الذي وصفه به الصاهل محكّيا على لسان الشاحج لتثيره عليه وتفسد مابينهما من مودة، ولذا رأيناه يقتحم المسرح فيهجم على الشاحج هجوما عنيفا بعد الرى، فَيَبْهش جحفلته، وهو غافل، فينكر عليه تصرفه هذا، ويحاول أن يخفف من غلواء عنفه فيذكره بما له من فضل عليه، ويظهره على مآثره عليه: فهو الذي يستقي له الماء صاحبه على ظهره. ويركز على محاولة اصلاح ما كاد يفسد بينهما مشيرا الى ما توارث من عداوة ذوات الجناح. ويركز على محاولة اصلاح ما كاد يفسد بينهما مشيرا الى ما توارث من عداوة ذوات الجناح. ويأخذ عليه استماعه للفاختة مع اشتهارها بالكذب، وكان الأجدر به، لو صحّ قول الفاختة، أن يصفح عنه ويحتمل لأنه مشاكهه في البلوى ببني آدم، وقسيمهُ في العناء الذي يقع لهما من البشر. ثم يخوّفه من مغبّة دعائه عليه في كل وقت دعوات قد تصيبه بأذى طويل باق لا نجاة منه لظلمه. ولا ينسى أن يمنيّه بدعوات أخرى تحقق له طيب المتاع من ماء وكلأ، إن هو خرج اليه من حقّه. ويهشّ أبو أيوب لأن يخرج اليه من حقه فيقدم له مشفرة ليأزمه، ويرفض الشاحج القصاص ويطلب عوضا عنه تكليفه بحمل الرسالة التي رفض الصاهل حملها الى عزيز الدولة. وهنا يحدث تغيير في الأسلوب الذي يريد أن يصوغ فيه رسالته، فيعدل عن الشعر إلى الألغاز على منحى ابن دريد في كتابه «الملاحن وابن فارس» في كتابه « فتيا فقيه العرب» ولصعوبة هذا المنحى يطلب منه أن يفرغ خاطره لحفظها

ويحسّ صمت أبي أيوب، فيظن فيه ظنّه في الصاهل، فيعتذر البعير لصعوبتها وثقلها عليه. لكنـه يعـد ، بأن يجهـد في حملهـا. ثم يبـدأ في إلقـاء ألغـازه وملاحنـه، وهي تدور على عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين وفاطمه الزهراء والرسول صلى الله عليه وسلم. وربما كان لعلاقة عزيز الدولة بالفاطميين صلة بهذا البدء. ثم يشفعها بملاحن أخرى عن نفسه وغيره من البهائم، وعن الناس يستلهم كثيرا من أحوالهم وصفـات معايشهم ليظهر ما فيها من الغرابة للوهلة الأولى. وهذا ما حدث مع أبي أيوب الذي أنكر هذا الأسلوب الملغز المعقد، فشتمه واتهمه بالكذب، ورفض أن ينقل هذا الباطل، واتهمه بأنه يمكن أن يأتي بمستحيلات أخرى من هذا القبيل.

ويلاحظ أن أبا العلاء أثرى الجانب الدرامي المسرحي في هذا القسم إثراء ملحوظا، سواء في ذلك ما حدث بين الشاحج والصاهل، وما حدث بينه وبين الفاختة، وما حدث بينه وبين الجمل منذ أن أوعزت الفاختة اليه بكلام الشاحج المفترى، وكذلك ما دار حوله وحول الجمل من اثارات بسبب ملاحنه وألغازه التي أخذ يلقيها في مسمعي أبي أيوب.

ويتوسل أبو العلاء بهذه الملاحن والألغاز لاثراء الجانب الفكري والثقافي في الرسالة، فيحشد على لسان أبي أيوب تأويلات وتخريجات تبطل دعوى الشاحج في ملاحنه وفقا لما شاع في حياة الناس مما تدل عليه مأثوراتهم الفـكرية والثقـافية، ويدعـم تأويلاتـه وتوجيهاته بتعليلات طريفة، وهي في أحايين كثيرة معقولة، ولكنها غير مرادة للشاحج. وبعد أن يستطرد طويلا في دحض مزاعمه وافتراءاته غير المعقولة يشفع ذلك كله بعبارة تلخص الموقف الدرامي هي أن الصاهل كان محقا عندما رفض حمل رسالته فقال: «واني لاظن الصاهل أصاب في جفوتك، ووفق لما أعرض عن النهوض في حاجتك، ولعله لم يضح له من أمرك وكذبك ما وضح لي واستنار، فبعدا لك، والى ربك مآبك، فيغفر لك أو يعاقبك، وهو علاّم الغيوب».

ومما تجدر ملاحظته أن ملاحن الشاحج قد خلت من كل ما عرض على الصاهل من تخفيف الأثقال عنه، وربما كان ذلك ليقينه أن أبا أيوب لن يحمل رسالته المشئومة لغرابة أسلوبه وغموضه.

وقبل أن يفسر ألغازه وملاحنه لابي أيوب يذكره بأنه قبل أن يلقي عليه أحاجيه أخبره بأنها ستكون على منحي ابن دريد في «ملاحنه» وابن فارس في «فتيا فقيه العرب». ثم يشرع في تفسير ملاحنه وتحليلها مزيلا ما علق بها من أوضار الغرابة والغموض، شافعا ذلك بشواهد تؤيد أفكاره ومراميه. وأحيانا نجده يذكر عدة وجوه من التأويلات ينصرف اليها اللغز وينهي تأويلاته بعبارة تنضح سخرية من البعير، محاولا تبرير سوء معاملته له بعد أن أساء اليه الفرس وهما قريبان فيقول: «وإيّاي ألحق اللائمة، إذا كان الصاهل حسدني، فالهادر أولى أن يبعدني، لأن الحافر أقرب اليّ من المنسم. ولعلك من ولد عسكر الذي أهداه الثقفي الى ابنة أبي بكر فشهدت عليه يوم الجمل».

ويعتذر أبو أيوب للشاحج، ويعرب له عن أسفه لعجزه عن حمل رسالته لصوغها نثرا، ولهيبة عزيز الدولة في نفسه، مبيّنا أثره في نفوس أهل حلب، وبني سنان خاصة.

وتستمر المهارشة الكلامية بينهما، فيتمادى الشاحج في تخويف أبي أيوب من عاقبة الدعاء عليه، ويتحفه بدعاء متنوع طريف وطويل ينضح سخرية وابداعا، وهو يشبه الى حد بعيد، ملاحنة وألغازه السابقة. ولكنه لا يعيها، وتبدو عليه قلّة مبالاته بها، فيشفعها الشاحج بتفسير لها ويدخل في هذه الأثناء الى مسرح الرسالة شخصية أخرى هي «الضبع» لتنضمّ الى مسيرة الحوار بين الشاحج وأبي أيوب، وتدخل بحركة درامية مناسبة، حيث أعلنت اعجابها بعلم الشاحج ومعرفته من خلال محاوراته مع البعير، ولذا فهي ترغب في أن تستوضحه أمرا مهماً يتعلق بكناها الثلاث المتجانسات: أم عامر وأم عويمر وأم عمرو وتعده، ان أجابها، أن تسعى له في ابلاغ رسالته الى العزيز باسناد دقيق. ويثقل أبو العلاء هذا القسم بالسخرية من الضبع باعتبارها من أحمق البهائم ويحاول أبو أيوب افساد ما بينهما، فيبين لها أنه يسخر منها اذ أكّد أنها المعنيّة بقول عمرو بن كلثوم:

تصدّ الكأس عنا أم عمرو : : وكان الكأس مجراها اليمينا

وكذلك كل ما تسمعه في شعر الغزل من أم عمرو وأم عامر، فهي المعنيّة لا غيرها، حتى قول الأعشى في هريرة:

غراء فرعاء مصقول عوارضها :: تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل
كأن مشيتها من بيت جارتها :: مرّ السحابة، لا ريث ولا عجل

إنما هو في وصف مفاتنها وجمالها .

فيؤكد لها البعير أن الشاحج يسخر منها، ويهزأ بها، فتقول: أحسبك صادقا أبا أيوب، لقد سمعت هذه الأبيات في امرأة يقال لها هريرة، فيقول الشاحج: أنشدك الله، هل تعلمين أنك تهرّين عند المطعم؟ فتقول: اللهم نعم. فيقول: أنت هريرة لا محالة. فتقول: الآن علمت صدقك وتحامل أبي أيوب عليك. فتتطوع لحمل رسالته لتوصيلها إلى العزيز عبر سلسلة من السند الدقيق، حيث تقول: «لي صديق من كلاب حلب يخرج لي في الليالي المقمرة، وبينه وبين بعض كلاب الصيد مودّة فألق اليّ ما تريد ألقه إلى الكلب الحلبي يلقه الكلب إلى صديقه من الكلاب الصائدة، يلقه ذلك إلى البازي، فيبلغ لك ما في نفسك». فيقول: جزيت خيرا، ان اسنادك لبعيد، وقد يئست من بلوغ الأمنية واليأس احدى الراحتين، وصبرت على أمر الله».

وتنسحب الضبع بعد أبي أيوب من على خشبة المسرح، ويبقى الشاحج البطل الدائم، ويدخل عليه شخص آخر من شخوص الرسالة هو « الثعْلب» الذي يحمل الى الشاحج بشارة بتخفيف الأعباء عنه، وكأن في هذا الخبر تحقيقا لما كان يأمله من رسالته الى عزيز الدولة، ولذا لم تعد قضية الحوار المسرحي في الرسالة قضية الشاحج وما كان يثقله من أعباء، فيشكره. وبينما هما يتحاوران سمعا لجّة في المصر، فطلب الشاحج من الثعلب تقصّي خبرها، فيمضي غير بعيد، ثم يعود ليخبره بما ذاع بين الناس من عزم زعيم الروم على غزو حلب، فيؤكّد الشاحج قدرة عزيز الدولة على ردّهم، ويكشف أثر هذا العزم على الناس، وما ألمّ بهم من الفزع، وما نجم عن الجفلة من تشريد وجوع اضطرّوا معه إلى أكل الضياون والكلاب. وتكمن عبقرية المعري في تصوير آثار الجفلة، وما يحرص عليه الناس من متاع كالخناتم، واضطراب وسوق الراحلين على البغال والحمير، ونراه ينكر عليهم جفلتهم ويتّهمهم بالجهل والخور، اذ لم يعتمدوا على عزيز الدولة، البطل

المقدام بعد الله. ثم يصفهم وصفا بديعا، ويصف ما سيلقون من عناء وجهد في رحيلهم على نحو ما يقول: «لقد حملهم الفرق على الغرق، فسوف يلقون شظفا من العيش، وتنزل بهم الضرورة الناقلة من حال إلى حال، فان هذه الآونة تحمل القاطع على أن يصل، والمهاجر صاحبه أن يعطف ويعتذر، ولم يفعلا ذلك رغبة في صلة الرحم، ولا تحوّبا من سوء القطيعة، وإنما ذلك للضرورة الحادثة وبعض الناس تؤضّه الشدة الى قطع الحميم، وفراق الأليف، وعقوق الوالد والوالدة... والشدائد في هذه الروعات تحمل المتطاول من القوم على أن يتواضع، والغني على أن يتهيأ بهيئة الفقير، والطمع من أهل الخسّة في مثل هذه الحادثة يحسن لهم التطاول وتتبع رحال الضعفاء .. وهذه النائبة تلزم الذين يتظاهرون بالعدم والفقر أن يخرجوا ما يخفون من الذخيرة يستعينون بها على اكتراء الحمار والراحلة.. وعند هذه النازلة نرى المريض والزمن وغيرهما من أهل العاهات قد تشبّهوا بالأصحّاء السالمين.. الى آخر هذه المشاهد التي أبدع المعري في وصفها ابداعا يدل على عبقرية الخيال عنده من جهة، واتصاله بالناس برغم ما فرض على نفسه من عزلة من جهة أخرى... وربما كان ذلك من موروثات الصراع الديني بين المسلمين والروم والذي كانت منطقة حلب التي يقيم فيها أبو العلاء أهم مسارحه، وما كان يشهد من جفلات الناس الذين كانوا لا يجدون الحماية من حكام حلب وولاتها بعد سيف الدولة. ويؤكد هذا ما نجده في رسالته التي وجهها الى أهل المعرة منصرفة من بغداد عندما عزم على التزام بيته وعدم الخروج منه حتى لو جال اهله من خوف الروم[٢٤] ووصفه هذا وان كان يمتاز بالطرفة لاعتماده على النكت العروضية والنحوية والصرفية التي استغلّها في وصف أحوال الجافلين، فقد أثقله بالسخرية المرة من الهاربين الذين أنكر عليهم جفلتهم وهروبهم، وكان يتمنى أن يبقوا في مساكنهم، كما عزم هو على البقاء، كما رأينا، ولا يكاد يغفل طبقة من طبقات المجتمع من تصوير آثار الجفلة عليها، مستعينا كما أسلفنا بالنكت العروضية والمصطلحات النحوية والصرفية واللغوية. ولا ينسى الشاحج، أحد أبطال الهجرة، فيتحفنا بصورة له غاية فى الطراقة والابداع، وكذلك طقات اليهود حيث نراه يحلل بعمق من خلال الجفلة النفسية اليهودية على نحو مانرى في قوله: «وَأَوْشِكْ بالرجل من يهود أن يفتقر الرجل من رهط المسيح ، فان كان المتهود حصيف العقل، أرمَ

(٢٤) رسائل أبي العلاء ٣٤.

وشغله ماهو فيه عماّ سلف من حديث الانبياء، وأرى النصراني أنه غير حافل بدين التوراة.. وإن كان صاحب يهود متهوّر الجول أخذ في شيء من أحاديث الأولين ، فأبغضه النصراني وتذكر مابينهما من الذحول [٢٥]، واعتقد فيه ماجاء في الكتاب الكريم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢٦] (سورة آل عمران) ويمضي الثعلب ليتحقق من أخبار الهاربين، ويعود الى الشاحج باليقين. ويلقانا في حديث الثعلب نصح يزجيه إلى الهاربين، يدلهم على الطريق التي يجب أن يسلكوهافي هربهم حتي يأمنوا العواقب، وهي بطبيعة الحال، طريق حلب لوجود عزيز الدولة فيها. ويستطرد في حديث طويل عن ملك الروم وعزمه على غزو حلب، وسفاهة رأيه في هذا العزم لما سيعود عليه من الندم، ولهذا ينصحه بالعدول عن عزمه مستخدما النكت العروضية والمصطلحات النحوية، وهو استخدام يبهر الشاحج العالم فيعجب به اعجابا بالغا، حتى ليفضّله على سميّه النحوي، كما يعجب بقدرته على الزجر والعيافة ومعرفة الفأل والطيرة، وكأنه من بني لهب. ثم يستأذنه في الانصراف، فيودّعه مكثرا له من الدعاء، طالبا منه موافاته بالأخبار. هنا لاينسى الثعلب رسالة الشاحج التى شغلته وعرضها على الصاهل وأبي أيوب والضبع فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، فيسأله إن كانت له مأربة، فيسكت الشاحج وينصرف الثعلب، ويغيب شهرا أو شهرين، ثم يعود فيستقبله الشاحج بحفاوة بالغة، ويسأله عن زوجه وأولاده ، ويتحسسَ مافي جَعبته من أخبار مشيدا بصدقه لقدومه كما وعد: وهنا يخبره الشاحج بعودة الجافلين من مهاجرهم، ويبدع في تصوير حالتهم البائسة ، حتى إنهم أقسموا لا يفرون مرة أخرى إن وقع ارجاف ثان: ولم يرجع بحال طيبة إلاّ جالية حلب الذين عادوا وهم يرفعون أكفَ الضراعة لعزيز الدولة لما وجدوا عنده من عون وخير. ولعلنا نستشف رأي أبي العلاء الذي أعلنه في رسالته إلى أهل المعرة ينطق به الشاحج ، وكأنه يلومهم على سرعة إجفالهم من الروم لوماً مشوبا بالسخرية والإشفاق. ونعلم من الأخبار التي نثرها ثعالة بين يدي الشاحج أن زعيم الروم نهد فعلا الى حلب في حيطة وحذر شديدين، شأن اللصوص والخراب . ويصف هنا ماسيحل بالروم ، إن هم وصلوا إلى حلب ، متوسلا بمصطلحات النحو والعروض، مبتدئا

(٢٥) الجوى: العقل. الذخول، جمع ذخل وهو الثأر والعداوة.

(٢٦) سورة آل عمران ١١٨.

بالطرق التي يمكن أن يسلكوها شافعا ذلك بأسماء أصحابة من الدماسقة والبطارقة والأساقفة وغيرهم محاولا توجيه تلك الأسماء على سبيل الطيرة للروم، والفأل للمسلمين ويحسّ ثعالةُ املاله وتطويله فيعتذر للشاحج مؤكدا رغبته فى الاطالة لولا خشيته من ملله،! ولكنه يمضي قبل أن يأخذ رأيه، فيصوّر الروم وعزيز الدولة، ويذكر قصة الاتفاق بينه وبين بسيل ملك الروم، وغير ذلك من الأخبار . وكل ذلك يسوقه في صور نحوية وعروضية طريفة. وينهي ابوالعلا رسالته بحديثا على لسان الثعلب عن شجاعة عزيز الدولة الذي يتبذل تبذل الشجعان ورعيته تشفق عليه إشفاق الجبناء ، وأنه لشجاعته يروى عنه أنه كان يعمل بسيفين عن يمين وشمال، والفرس تجري به أشدَ الجري .

وتختفي شخوصه عن خشبة المسرح دون أن يطرح أحدها تحية الوداع على صاحبه، أو إعلامه بالانصراف، حتى الرسالة التي كان الشاحج يعتزم ارسالها الى عزيز الدولة قد أغفلها ولم يحرص على ابلاغها لثعالة الذي ذكره بها، وأعلن استعداده لحملها. ومعروف أن غرض الشاحج من رسالته تخفيف بعض الأثقال التي ينوء تحتها. وقد أخبره الشاحج بعد عودته بأنه وطّن نفسه على المسايرة والموادعة والبعد عن المشاكسة إذ يقول أما أن، فياسرت اصحابى و ياسروني، ووجدت المياسرة أفضل من المعاسرة، أخفّوا حملي، وأمرت بالصبر نفسي». وكأن في هذا رمزا لهدف أبي العلاء من رسالته هذه، وتحقيق عزيز الدولة له .

وهكذا تنتهي رسالة الصاهل والشاحج التي صور فيها بدقة مشاهد الجافلين، وتعمق في نفسياتهم، وأبرز لنا فيها ملامح من التاريخ وجذاذات من الصراع السياسي والحربي بين المسلمين والروم، مستعرضا ما وعته ذاكرته العجيبة، وحافظته الغريبة، وذكاؤه الحاد من أنماط الثقافات والمعارف، وهي ثقافات ومعارف غدت من خصائصه الأسلوبية، بحيث لا يكاد يخلو منها كتاب أو ديوان شعر أو رسالة طويلة أو قصيرة على نحو ما نجد ذلك واضحا في اللزوميات والغفران والملائكة والفصول. وهي ثقافات ومعارف تجعل لكتبه مذاقا خاصا وطعما فريدا، وتفرض على القاريء قبولها، وتنتزع منه اعجابه بها، ولا يملّ من قراءتها، برغم الصخور اللغوية والنكت النحوية والمصطلحات العروضية التي يقذفها بلا هوادة أو رحمة في وجوه قرّائه.

ولعل من أهم ما يجب أن يميّز طبقة قرّاء المعري الثروة الثقافية والفكرية المتنوعة، لتساعدهم على تذوّق أساليبه، وفهم آرائه، ومتابعة أفكاره الغزيرة التي ينثرها في كل كلمة وكل جملة.

الخصائص الفنية للرسالة

من خلال قراءتنا للأدب العلائي نتبين مجموعة من الخصائص الفنية يمتاز بها ذلك الأدب وهي خصائص تبرز بوضوح وتلقانا بسهولة ويسر، ونكاد نعثر عليها في كل سطر من سطورها. وأهم تلك الخصائص وضوح شخصية أبي العلاء الانسانية والأدبية والفكرية، ووضوح الجانب الثقافي والفكري الذي يعتمد على ما اختزنته ذاكرته العجيبة وحافظته الغريبة التي نجد أخبارها عند مؤرخيه، وان غلبت عليها المبالغة. ثم هذه الثروة الثقافية الهائلة التي تلقانا في سائر كتبه ورسائله ودواوينه، والجانب البلاغي الذي سيطر على أسلوبه سيطرة تكاد تكون دقيقة، واللغة التي أفرط في استخدام غريبها افراطا ملموسا، كذلك يمتاز الأدب العلائي بروعة الخيال العبقري، وبراعة السخرية المرّة، وطرافة التعبير عن كثير من القضايا التي يعالجها. ونكرر القول بأن مثل هذه الخصائص لا تنحصر في رسالة معينة أو كتاب بذاته وإنما هي خصائص تميّز الفنّ النثري عند أبي العلاء خاصة والشعري عامة. وهي خصائص يلقانا بعضها بوضوح ويبرز بعضها الآخر على استحياء، بين كتاب ورسالة من مصنفات الشيخ. وقد يختفي بعضها ليحل محلّه غيره، وفقا لطبيعة الموضوع الذي يعالجه. وسنجد ذلك بوضوح عند استعراض تلك الخصائص في رسالة الصاهل والشاحج، ومقارنتها بقدر الامكان بما في رسائله وكتبه الأخرى.

وأهم هذه الخصائص التي تبرز بوضوح في هذه الرسالة هي:

الصورة الشخصية لأبي العلاء:

وأول ما يلقانا في تلك الرسالة من هذه الخصائص الصورة الشخصية لأبي العلاء التي تتدخل نفسيته تدخلا واضحا في رسم خطوطها وظلالها وتوزيع ألوانها. وهي صورة تكاد تكون تقليدية يكررها في أغلب كتبه بتمامها، وقلّما يجدد فيها، صورة المتواضع المتجاهل الذي لا يملّ من الاعلان عن جهله وقصر نظر الناس فيه، لاتهامهم إياه بالعلم

والمعرفة، وهو منها صفر اليدين، خاوي الوفاض. ولا يحتاج القارئ ليتبين بطلان رأي أبي العلاء هذا وكشف ادّعائه الزائف، وصدق رأي الناس فيه، الاّ البدء في قراءة تلك المصنفات ليلقاه منذ الكلمات الأولى عالم زاخر الثقافات، ثرّ الأفكار، ومعاجم لغوية من نوع جديد، تخلو من كل أثر للجفاف والجمود. وتستحيل فيه العلوم الجافّة الى صور طريفة يعيها القارئ وعيا يكاد يكون دقيقا، بعد أن أزال ما علق بها من أوضار الغموض، وران عليها من أدران الجمود. ويجب ألا يعني هذا أن فن النثر العلائي خال من التعقيد والالتواء، مبرأ من الجمود والغموض، بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إن من أهم ما يميز الأدب العلائي كله الغموض والتعقيد، وذلك لأنه يصوغه في أساليب تعتمد اعتمادا أساسياً على انتقاء الألفاظ، والغريبة منها على وجه الخصوص. وفي استخدام تلك الألفاظ صعوبة بالغة، خاصة بالنسبة لعصرنا الراهن الذي نأى عن منابع اللغة الأصيلة، واكتفى بمجموعة من المفردات أفرط في لوكها واستهلاكها حتى ابتذلت أو كادت. ولكن قارئ الأدب العلائي يختزن طاقة كبيرة من المتعة الفنية عند قراءة ذلك الأدب، إذ يجهد في تحليل آثار الغموض، وإزالة القشرة الصلبة التي تغلف أفكاره القيمة، ليبلغ قيمها الرفيعة. ولو لا هذه الخصائص الفنية لفقد الأدب العلائي قيمته، ولما حظي بهذه العناية، وإن كانت عناية قليلة، أو محدودة بسبب تلك الخصائص، أو أغلبها التي تدفع عنها الناس عامة، وطبقة المثقفين خاصة، دفعا غير رفيق في كثير من الأحيان.

وإذا رجعنا إلى رسالة الصاهل والشاحج نتبين فيها آثار الشخصية العلائية فإننا نجد أول تلك الآثار «التواضع».

والتواضع في أدب أبي العلاء شنشنة نعرفها من أخزم، تعودّنا عليها لكثرة ما رأيناها في مصنفاته المختلفة، يقول مثلا في رسالة الغفران: «يظنّ أنني من أهل العلم، وما أنا له بالصاحب ولا الخلم. وتلك لعمري بليّة، تفتقد معها الجليّة، والعلوم تفتقر الى مراس، أو دارس للكتب أخي دارس. ويقال أنني من أهل الدين، ولو ظهر ما وراء السدين، ما اقتنع لي الواصف بسبّ، وودّ أن يسقيني جَوْزَلاً بِشَبّ.. ولو أنني لا أشعر بما يقال فيّ، لأرحت من إنكاري وتلافيّ.. وكيف أغتبط إذا تخرّص عليّ، وعزيت المعرفة إليّ؟ ولست

آمنا في العاقبة فضيحة غير مصاقبة. ومثلي، إن جذلت بذلك، مثل من اتّهم بمال، فاعتقد أن ما ذاع من الخبر يأتيه بجمال، فسرّه قول الجهلة: إنه لحلف اليسار، والذهاب في يمينه واليسار. فطلب منه بعض السلاطين أن يحمل اليه جملة وافرة،.فصادف أكذوبة زافرة، وضربه، كي يقرّ، وقتل في العقوبة، ولم يُعْطَ البرّ. وقد شهد الله أني أجذل بمن عابني، لأنه صدق فيما رابني، وأهتمّ لثناء مكذوب.. فغفر الله لمن ظنّ حسنا بالمسيء [٢٧].

وعلى نحو ما نجد في هذه الرسالة إذ يقول لعزيز الدولة معتذرا عن قصوره في عدم لحاقه ببلاطه، واعتزاله مجالسهم: «ولو كنت بالغا في الأدب أطـوريّ، لكنـت في تلك الحضرة كالقطرة تحت الصبير، والحصاة الى جانب ثبير، فما بالي وأنا مثقل استعان بذقن، وطفل بهش الى يفن، وذليل عاذ بقرملة، وعبد هتف بأمَةٍ، والربيع أغفلت الكمأة، وعند المنهل نسيت المزادة، كل امرى يغدو بما استعدّ، وقبل الرماء تملأ الكنائن، فماذا يصنع من لا كنانة له، ولا عدّة عنده [٢٨]؟

ويقول عن نفسه في حواره مع الشاحج على لسان أبي أيوب وهو ينكر عليه ملاحنه وألغازه غير المعقولة: «وبعض من لا يعرفه من العامة يظنّ أنه من أهل العلم. كذبت الظنون، لو كان كذلك لولب من حضرة السيد عزيز الدولة، لأنه، كما قيل في المثل: لا مخبأ لعطر بعد عروس. ولكنه المسكين لا يبهش لثناء مكذوب عليه [٢٩].

ومن ذلك ما يقوله في وصف رسالته هذه التي أرسلها الى عزيز الدولة يشكره على تحقيق مسألته: «والذي للسيد عزيز الدولة في نفسي من الهيبة والاجلال، يخيّل إليّ أنها في

---

(٢٧) رسالة الغفران ٣٩٠ ـ ٣٩٢. الخلم: الصديق الخالص. الجوزل: السم ـ الشب: ملح معدني قابض. وانظر كذلك البحث الخاص برسالة الغفران من هذه الرسالة.

(٢٨) رسالة الصاهل والشاحج ٨١ ـ ٨٢. أطوري : ما كان على حد الشيء والمقصود بلغ أوله وأخره. الصبير: السحاب الأبيض. ثبير: جبل بمكة مثقل استعان بذقن: مثل يُضرب في الرجل الذليل يستعين بآخر مثله. االيفن: الشيخ المسن. القرملة: شجرة ضعيفة بلا شوك. المزادة: الرواية.

(٢٩) رسالة الصاهل والشاحج ٢٤١. ولب : دنا.

صورة عجوز شمطاء، قد حلّيتها ببرد، وخلّيتها ترعد من الصرد، ولو أدركت ليلة «نعمى روز» لكان حليها في ظنّي أول ذائب.. وقد اتفق لها من المعاني، ما ان كان حسنا، فما أنسبه الاّ إلى اقبال السيد عزيز الدولة».

ولعل هذا الاحساس النفسي العميق بالتواضع، كان وراء ذمّ الغرور والكبرياء على لسانَ الشاحج وهو يردّ على انكار الصاهل لقرابته وخئولته له في هذه الرسالة إذ يقول: «ولو تكبّر سنان الرمح وقال في نفسه: إن الله رفعني فوق أدوات الحرب، لجاز أن يطعن غبّ ذلك فينحطم، فيصير الى الهالكي فيجعله مسمارا في حافر هجين مقرف.

ولعل النسر تكبّر وهو في أعلى اللوح، وأعجب بأنه ارتفع الى مكان لا يبلغه كثير من الطير، فلم يلبث فاذا مكانه أخفض من أماكن خشاش الطير. ولعل الماء تواضع وهو في قعر البحر، فبعث الله تعالى لسانا من السحب فرفعه الى حوض المزن، ثم إنه تكبّر فنزل لوقته الى القرارة المنخفضة، فصار طوفا كدرا تخبطه أخفاف الابل، ويعافه الصادي والعطشان»[٣٠].

أرأيت الى هذه الأخيلة الرصينة التي توفرت لأبي العلاء، فأدرك مثل هذه الاشارات اللطيفة التي وفق في استخدامها للتنفير من الكبرياء، والتحذير من مغبّة الغرور. وتأمل في صورة الماء المزدوجة، كيف رفعه الله الى المزن عندما كان متواضعا، وكيف أهبطه الى تلك القيعان الكدرة تخبطه أخفاف الابل عندما أحسّ في نفسه الزهو، وخامره الغرور لارتفاع مكانه؟.

ومن جوانب الشخصية العلائية في الرسالة كذلك سعيه لغيره. وهي صفة يتمتع بها الزاهد الورع الذي ترك للناس الدنيا، وتخلى لهم عن حطامها الزائل، ومتاعها الزائف.

---

(٣٠) الرسالة ١٦٩. الهالكي: الحداد. الهجين: اللئيم. المقرف،، الاقراف: الهجنة من جهة الأب. اما من جهة الأم فهي الهجنة. اللوح: الهواء. خشاش الطير: ضعافها. الطوف : الغائط يعني الذي بالت فيه الابل.

ومعروف أن هذه الرسالة كتبها في مسألة تخصّ أبناء أخيه تحت الحاحهم ووفاء لما لهم من الفضل عليه، سواء أكانت كتبت قبل قضاء الحاجة، وتحقيق المسألة، أم كتبت بعد ذلك شكرا للعزيز، واعترافا بفضله. يقول أبو العلاء مصوّرا حال الشاحج في دأبه وتعبه لغيره: «فجائز أن تضمر هذه البهيمة، أو تقول باللسان ما لا يفهمه كل انسان من كلام معناه : ربّ صلف تحت الراعد، وساع دأب لقاعد، تقرى البائسة، وترد الرائسة. ذهب سيري وسراي، وشربت الشاربة قراى، كأن تَعبي ما يهبه الله سبحانه لأهل الدار الآخرة، كلما فني نعيم، فالله بمثله زعيم..

قد يجمع المال غير آكلـه :: ويأكل المال غير من جمعـه [٣١]

وكان لزهده نصيب في الرسالة، وإن كان نصيبا محدودا، وذلك لأن الزهد يتنـافى وغرضه منها. فهو لم يكتبها لنفسه ولم يعالج فيها قضاياه وأفكاره الخاصة، وتأملاته في الحياة والأحياء، وآراءه في قضية المصير على نحو ما نجد في اللـزوميات والفصـول والغايات مثلا، وإنما كتبها لغرض مخالف للزهد كل المخالفة، وهو المسألـة في تخفيف بعض الأعباء، واسقاط بعض الحقوق عن أرض لأبناء أخيه. وهو غرض لا تربطه بأفكار أبي العلاء في الزهد أيّة واشجة. ولكن تأبى تلك الأفكار إلاّ أن تتساقط من مفتاح النفسية العلائية بين الحين والآخر على نحو ما نجد في رسالته وهو يشيد بأطيب طعاميه في اللزوميات، إذ يقول:

يعجبني بلسن يمارس لـي :: وان أتتني حلاوة فبلـس[٣٢]

فيذكر حديثا للرسول صلى الله عليه وسلم وهو: «من أحبّ أن يلين قلبه فليدمن أكل البلس»[٣٣].

ولا نكاد نجد وراء هذه الاشارة شيئا يتصل بمذهبه الزهدي الذي وفاه حقه، وفصله في كثير من كتبه.

---

(٣١) الرسالة ٩١ ـ ٩٢.

(٣٢) اللزوميات ٢/٥٥. البلسن : العدس، البلس: التين.

(٣٣) رسالة الصاهل والشاحج ٦٢١.

ومن الخصائص الأخرى التي امتازت بها رسالة الصاهل والشاحج «الثقافة» ... والثقافة من الخصائص الفنية التي يمتـاز بهـا الأدب العلائـي عامـة، لاستعـراض واستظهار الثقافات الهائلة التي اختزنتها حافظة أبي العلاء اختزانا كاملا، وتفاعلـت معها عبقريته الفذة تفاعلا عميقا، فخرجت عل هذه الصورة الـزاهية التـي نحسّهـا بوضوح من خلال قراءة تلك المصنفات.

ومن يقرأ في تلك الكتب يحسّ أن الثقافة تستحيل عجينـة ليّنـة في يد الشيخ، يشكلها كيفما شاء، وحسبما أراد، وتنساب انسيابا رائعا رائقا دون أن يحس عنتا أو جهدا في استخدامها، أو صوغها. كما يحس أنها تلتحم مع عباراته التحاما طبيعيا؛ ولا يستطيع القارئ أن يتبين خللا في النسيج الثقافي في مصنفات أبي العلاء، كما لا يحسّ أن تلك العناصر الثقافية جاءت مقحمة وغير مناسبة لعباراته التي يختارها، بل يحسّ أن مثل تلك الثقافات قد قدّت على قدود ألفاظه وعباراتـه. ويظهـر هذا بوضـوح في جانـب الاستشهاد في الرسالة، سواء أكانت استشهادات أدبية أم آيات أم أمثالا. وتأمل الأمثال التي ذكرناها في مطلع هذا العرض، والتي تتعلق بتواضعه، فانك تحسّ، برغم ازدحامها، أنها تلتحم التحاما عميقا بأفكاره وعباراته. ولا تجد بينها تفاوتا أو اختلافا، فقد طاعت له الثقافة يصرفها كيف يشاء.

ثم انظر الى هذا المثل كيف جاء ملتحما بعبارته، وكأنه لم يعرف من قبل، وقد ورد في حوار الشاحج مع ثعالة عن الجالين موجّها الحديث الى الديك: «وكأني بأبي عقبة وهو مشدود الرجلين الى أرجل دجائج ثلاث أو أربع، وهو معلّق من مؤخرة إكاف، وقد أفرط هو وصواحبه في الصراخ ـ صبرا أبا عقبة،(فان مع العسر يسرا)، الغمرات ثم ينجلين. بعض الشر أهون من بعض، هذا خير لك من أن تكون قد دلّيت في وطيس حام، أو غلت بك إحدى البرم عائما في ملح وماء»(٣٤)

(٣٤) الرسالة ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

أرأيت كيف التحمت هذه الاستشهادات القرآنية والمثلية بعباراته التحاما دقيقا يدل على وعي عميق بالفكرة التي يعالجها و يريد التعبير عنها.

ومن ذلك ما يقوله مخاطبا أبا أيوب وهو يحمله رسالته الى عزيز الدولة على لسان الشاحج: «واذا بلغت في سفرك مبارك الابل من الحضرة الجليلة فارفع صوتك بالعجيج، فلعله يفهم عنك، ففي نحو من حديثنا ضرب المثل: «كفى برغائها منادياً».

وتستطيع أن تلمس هذه الدقة في استخدام الأمثال، ومبلغ التحامها بعباراته بمجرد النظر في السياق الذي وردت فيه أمثاله الوفيرة التي زخرت بها الرسالة.

ومثل ذلك دقّة استشهاده بالآيات القرآنية، ومناسبتها لعباراته وأفكاره، على نحو ما يقول فى حواريّة الصراع بين الصاهل والشاحج: «وأما قول: لو أنشدتني لفعلت ـ ووصفت صنيعك ـ فلست بأهل للاستشهاد لأنك مثل ما جاء فى الكتاب الأعز: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنَ اَفْوٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ اَكْبَرُ(١١٨)» (سورة آل عمران). وتستطيع أن تقارن بين المناسبتين اللتين وردت فيهما هذه الآية الكريمة فى الرسالة لتتبين دقّة الاستشهاد عند أبي العلاء.

ولو مضينا نستقصي هذه الشواهد القرآنية لطال بنا الأمر، ونكتفي بما ذكرنا اشارة توضّح هذه الفكرة، أو الخصيصة.

ومن أبرز ملامح الثقافة في الرسالة الملاحن والألغاز التي شاعت وانتشرت على لسان الشاحج ـ رمز العلم والصبر والصمود فيها ـ. وقد كان لها أثر بالغ على أبي أيوب، الذي أثْرى هذا الجانب الثقافي كذلك إثراء عجيبا بما تفجّر على مشافره من العلم والمعرفة، وبحسبنا أن نذكر أن تخريجاته وتأويلاته التي وضعها على ملاحن الشاحج وألغازه بلغت زهاء ربع الرسالة من ص ٢٣٤ ـ ٣٥٠، وهي تخريجات وتأويلات مثقلة بالأصباغ الثقافية الزاهية.

ومعروف أن أبا أيوب حرص في هذا القسم على نقض مزاعم الشاحج وافتراءاته واختلاقاته ومستحيلاته التي قذف بها في مسمعيه، وحاول أن يأتي بالوجوه الصحيحة المناسبة لملاحن صاحبه. وتحسّ بعمق، قدرة أبي أيوب، وان شئت، أبي العلاء على تشقيق المعاني، وتوليد الأفكار، وتوجيه العبارات، وإن أغرب في بعض الجوانب. ويخصب أبو العلاء هذا الجانب الثقافي في رسالته ويثريه عندما يفاجأ أبو أيوب بأن كل ما انتهى اليه من تأويلات وتخريجات ليست مرادة للشاحج الذي أخذ في حلّ ألغازه، وكشف أسرار ملاحنه. ولم يكن يكتفي بذلك، بل وجدناه أحيانا يأتي بأكثر من وجه أو تأويل يحتمله اللفظ الملغز.

وبهذا الأسلوب كان أبو العلاء يركّب من ثقافاته الغزيرة طبقات شامخات بعضها فوق بعض : ملاحن الشاحج، ثم تأويلات أبي أيوب ثم تفسيرات الشاحج وحلّها.

وإذا أردنا مثالا في هذه الدراسة الموجزة نأخذ بداية ملاحنه كمثال قريب مجرّد من كل اعتبار.

يقول الشاحج: «العلم يدل على أن الحسن، صلى الله عليه، لم ير الحسين قط، وأن الحسين صلى الله عليه، لم ير الحسن قط، وأن فاطمة رضي الله عنها، لم تر في بيتها عليّا، وقد يجوز أن تكون رأته على باب البيت، وأن الخَلّ يجوز أن يكون فيما سلف، كان بحضرة علي بن الحسين، رضي الله عنهما، فيتكلم ويسأله عن أشياء من أمر الدين. وأن محمد بن علي الباقر، وهو والد جعفر الصادق لم ير في داره جعفرا قط وأن الحسن والحسين كانا يأخذان البثَ بأيديهما فيجعلانه في أفواههما، ثم ينزل الى الصدور منهما، وأنهما كانا يتطهران بالبسر، ويغتسلان منه، وكان علي، عليه السلام، يرحم الأرملة، ويبرّ اليتيم، ويضرب بحدّ سيفه أم الصبيينَ، ويقطع يد الفيل على السرق، وجلده على شرب الخمر، وكان يأمر بقتل الأعرج والأعيرج وهما في الحرم، ويكره دخول الأعمى المسجد. وكان ينصف الخسيس من أهل الأقدار، ويوطئ الجليل في زمانه بالقدم. وان رأى نبيذا في الجرّ سأل عن حاله، فإن كان معروفا ألزم به أهله، وان كان مجهولا أنفق عليه حتى ينطق

ويبلغ الرشد، وكان يلعن البقرة، ولا يقول في الثور إلاّ خيرا. ويصلي، ان اتفق له، فوق العنز. وأكل الصقر، ولم يأكل البازي، لأنه من سباع الطير. وكان يعلم البازي أفعال الصالحين، فإن قبل منهم، وإلاّ أدبه بالسيف أو السوط»[٣٥].

ويتضح من خلال قراءة القطعة الغرابة المفرطة التي سيطرت عليها، والتي دفعت أبا أيوب الى استغرابها ورفضها لمخالفتها المعقول فقال في انكارها: «أعلى أهل البيت عليهم السلام، تلع؟ لعلك لهم ناصب فيصيبك عذاب واصب، وزعمت أن الريحانتين، صلى الله عليهما، لم ير أحدهما الآخر، وحكمت أن السبطين يجريان مجرى القرطين هما في الحقيقة أخوان، ولكنهما لا يلتقيان؟ وهل فرّق بينهما شيء إلاّ الموت؟ ولعمري إن الحسن قد سافر تلك السفرة، ولم يكن الحسين معه. وزعمت أن محمد بن عليّ لم ير جعفرا في داره، فمن الذي نقل ذلك إليك؟ أليسا بالمدينة كانا قاطنين؟ أفتظنّهما كانا لا يتزاوران، لقد كذب ظنّك، ولم يوفق رأيك.. وقد دلّت الأخبار أن «جعفراً» عليه السلام كان يسكن مع أبيه برهة من الدهر. وأما قولك إن الزهراء، صلى الله عليها، لم تر عليًا، رضي الله عنه في بيتها، فعليك بهلة الله، أين كانت تلقاه؟ أفي بيوت الناس، أم على ظهور الصعدات»[٣٦].

وعلى هذا النحو تمضي تأويلات أبي أيوب وتخريجاته على ملاحن الشاحج وألغازه، ومعروف أنها غير مرادة له، ولذا عقّب عليها بالتفسير الذي وطّد بينهما العلاقة عندما تبين له مبلغ علم الشاحج.

ولنقرأ تأويلات الشاحج لملاحنه التي أثارت البعير عليه، وأتّهمه بأنه ناصبيّ، يقول: «انما الحسن والحسين كثيبا رمل، ألغزتهما عن الحسن والحسين، صلى الله عليهما.

قال الضبّيّ:

لأمّ الأرض ويل ما أجنّت :: بحيث أضرّ بالحسن السبيل

(٣٥) الرسالة ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٣٦) الرسالة ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

وقال الحارثي:

تركنا بالثنيّة من حسين :: نساء الحيّ يلقطن الجمانا

وهذا الذي عنيت بقولي: ان الحسن، صلى الله عليه وسلم لم ير الحسين. لأنا لم نعلم أنه، صلى الله عليه وسلم، رأى هذا الكثيب قط. وفيه وجه آخر، وهو أن يكون: لم ير، من قولهم: رآه، يرآه إذا ضرب رئته. ثم خففت الهمزة، كما قالوا: تنا، في تنأ، أنشد أبو السحق الزجاج في كتابه المعروف بـ «جامع المنطق»:

أقول والعيش تنا بوهد :: ان تنزلا أكفكما بجهد
فطالما سقت المطيّ وحدي

والعليّ: الفراش الشديد الصلب. والاشتقاق يدل على أنه العالي... فهذا الذي عنيت بقولي: «إن فاطمة صلى الله عليها، لم تر عليًا في بيتها» .. والخلّ: الرجل المهزول. ويجوز أن يكون المختلّ الحال. وهذا الذي عنيت بقولي: «ان الخلّ يجوز أن يكون فيما سلف، كان يحضر مائدة علي بن الحسين، صلى الله عليه، والجعفر: النهر الكثير الماء. فهذا الذي عنيت: ب «أن الباقر عليه السلام، لم ير في داره جعفرا قطّ. ألغزته عن جعفر الصادق، صلى الله عليه». والبثّ: تمر مفترق لم يجد كنزه. فهذا الذي عنيت بأن الحسن والحسين كانا يأخذان البثّ بأيديهما. ألغزته عن البثّ الذي يجده الرجل في نفسه. ومعلوم أنهما صلى الله عليهما، كانا يأكلان التمر. والبسر: الماء القريب العهد بالسحاب. قال أبو ذؤيب:

فجاء وقد فصلته الجنو ب عذب المذاقة بسرا خصر

وأم الصبيين: الهامة. قال تأبّط شرّا:

إذا أفزعوا أم الصبيين طيروا عَفَارِىَ عنها ضافةً لم تُرجَّل

ألغزت بأم الصبيين عن المرأة التي لها صبيان، لأن العرب تردد ذلك، فيقولون: أم الصبي، وأم الصبيين. أنشد الفرّاء:

ألا زعمت أم الصبيّ خـــزاية   على فزارة أن عرفـت بني عبـس(٣٧)

والأعرج الذي عنيت ان علياً ، صلى الله عليه وسلم، كان يأمر بقتله في الحرم هو الغراب أو الذيب. لأنهما أعرجان، وقتلهما مباح في الحرم، مندوب اليه.

والأعيرج ضرب من الحيّات. والأعمى السيل والفحل الهائج من الابل، ويقال: أعوذ بالله من الأعميين، وهما الأيهمان. ويقال: إنهما في البادية كما مضى، وفي الحاضرة: السيل والحريق. ولا ريب أن عليّا، عليه السلام، كان يكره دخول هذه الأشياء المسجد. والجليل الذي ذكرته في حديث عليّ، عليه السلام، يحتمل أمرين: أحدهما أن يعني به الثمام، ومنه البيت المروي عن بلال:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلـة   بـواد وحولـي إذ خرو جـليل

والآخر أن يعني به الجلّة. يقال: جلّت الأمة، تجلّ فالشيء مجلول وجليل. وإنما قلت: وكان ينصف الخسيس من اهل الأقدار إلغازا ليتوهّم السامع أن الجليل هاهنا، يعني به الجليل من الناس. والنبيذ: في معنى المنبوذ، وهو الصبيّ الذي قد نبذ. ألغزته عن النبيذ المشروب. والجرّ: أصل الجبل. ألغزته عن الجرّ من الفخّار. قال النابغة:

لو لا بنو عوف بن بهثة أصبحت   بالجرّ أمّ بني أبيك عقيمـــا

وقولي: كان يلعن البقرة ـ عنيت به جمع باقر، وهو الذي يبقر بطن المرأة أو الرجل.

(٣٧) هذا البيت فيه كسر من حيث الوزن في الشطر الثاني. إلاّ إذا قرئ على هذا النحو: ألا ... عَلَيَّ فزارةَ أنْ عرفتُ بني عبْسِ

مثل ما روي عن الجحّاف بن حكيم السلمي أنه غزا بني تغلب، فقتل الرجال، وبقر بطون الحبالى. ومعروف من سيرة علي، صلى الله عليه، أنه كان يلعن من فعل ذلك. وذكرت الثور بعد ذلك ملغزا.

والعنز: الأكمة السوداء. قال الراجز:

«وعلم أخرس فوق عنز»

والصقر: الدبس، ألغزته عن الصقر من الطير. والبازي الذي كان يعلمه أخلاق الصالحين: البازي في معنى الظالم القاهر. ويقال: بزاه إذا ظلمه وقهره»[٣٨].

ويمضي الشاحج على هذا النحو يحلّ رموزه، ويفسرّ ألغازه. وهو تفسير يدلّ على مبلغ علم أبي العلاء وثقافته في هذه الرسالة. ويبدو أن الألغاز كانت تستقطب اهتمام أبي العلاء، ويحلو له أن يوردها كثيرا على لسان الشاحج. وقد كثرت في دعائه على أبي أيوب، وهو دعاء غريب ترك البعير حيران سادرا، إلى أن كشف له عن غامضها، وأزال غرابتها[٣٩].

وكذلك في وصف نزول جيش الروم ـ لو نزل ـ بظاهر حلب، فقد سبكه في نكت عروضية لطيفة غاية في الإلغاز والغموض، ثم شفعها بتفسير يوضح معانيها المرادة كما نرى في قوله: «ولو نزل جيش العدوّ ـ خذله الله ـ بظاهر حلب ـ حرسها الله ـ لصادفته القافية على الرويّ، ومنع نومه الرسّ، وخاف الشجب من الحذو، وفقد الإشباع، وفزع إلى التوجيه، وطلب المجرى والنفاذ فوجدهما عزيزين. وأضرّ به في ذلك الإقواء، وأكفى عن المراد، وعرّفه عزيز الدولة ـ أعز الله نصره ـ كيف يكون الابطاء. وحمل البطريق على السناد وسأل في تضمين وإغرام، ومن له بأن يصل إلى الإجَازة أو الإجارة؟ ولكره جيشهم أن يدنو إلى التأسيس، وذهل عن الردف إذا وقع بهم وصل وخروج»[٤٠].

---

(٣٨) الرسالة ٣٥١ ـ ٣٥٦. (٣٩) الرسالة ٣٨٣ ـ ٤٠٩. (٤٠) الرسالة ٥٣٣.

ثم يبين أن تلك الألفاظ ملغزة عن حروف القوافي وحركاتها وعيوب الشعر.

ويبدأ في تفسيرها ذاكرا أن القافية جماعة يبرزهم عزيزِ الدولة يضربون في قفيّهم، من قولك: قفوته إذا ضربت قفاه. والرويّ: الماء المروي، وهو «قويق» ... والرس: الوجد والحزن. والحذو: محاذاة المكان. والاشباع: اشباع الطعام. والتوجيه: توجيههم في طلب الصلح. والمجرى: مجرى الخيل. والنفاذ: المضاء في الأمر. والإقواء: فناء الزاد، والاكفاء : الامالة. والايطاء: ايطاء الفرس القتيل. والسناد: الناقة الضامرة يحمل عليها البطريق إذا أسر. والتضمين: من ضمّن الرجل نفسه سواه، اذا ضمن عنه المال. والاغرام: من أغرمته مالا، والاجازة: العبور. والاجارة: الحماية. والتأسيس: ما أسّست البناء. والوصل: اتصال المطر. والخروج: خروج الناس للقتال»(٤١)

أرأيت كيف تستحيل الثقافة في أشدّ جوانبها جفافا وتعقيدا الى عجينة ليّنة تتشكل بمثل تلك الأشكال الطريفة الرائعة. ولعلها تكون طريقة مناسبة وطريفة لتعليم هذه المصطلحات واخراجها من دائرة الجمود والجفاف الى دائرة الاستعمال العادي.

ومثل هذه الثقافات الغزيرة تبرز في الأدب العلائي تحت ظاهرة التداعي الفكري الذي تتسلسل فيه الأفكار واحدة تلو الأخرى، وهي لون من ألوان الاستطراد الذي يغني الكتابة، ويثري الفكر. ونكاد نجد ظاهرة التداعي الفكري هذه في كل صفحة من صفحات الرسالة التي بنيت، بحق، عليها، وهي ليست ظاهرة خاصة برسالة الصاهل والشاحج، بل هي من خصائص الأدب العلائي، ونجد شواهدها بوضوح في رسالتي الغفران والملائكة... فمثلا إذا ذكر الثعبان تداعت اليه فكرة الحيّات، وبرز الى سطح ذاكرته كثير مما اختزنته فيها من أفكار تتصل بها، على نحو ما نجد عند ذكره لسند الدولة بن ثعبان فيقول: «الثعبان : الحية العظيمة. وقيل: هو الذكر منها. والعرب تضرب المثل للرجل الشجاع الحازم بالحيّة، قال خداش بن زهير:

(٤١) الرسالة ٥٣٣ ـ ٥٣٩.

فان يك أوس حيّة مســتميتة　فدع عنك أوسـا ان رقيتـه معي

ويقولون حيّة ذكر، وحية الوادي، والحية الجبلية [٤٢].

ومِن شواهد التداعي الفكري الفخر بالخال، وما يتصل به من حقّ الرحم، وما وعته ذاكرته من شواهد عليه [٤٣].

وكذلك ذكر الخمر وما يحدث في مجالسها، وما تكشف من أسرار، ومن حرّمها على نفسه في الجاهلية لأنها لا تتناسب وسيادتهم وشرفهم.

ومن ذلك أسماء الأعلام التي انتشرت في الرسالة، على نحو ما نعرف من أسماء الهجّائين [٤٤]، وأسماء المغنين [٤٥]، وأخبار النساء [٤٦] وغير ذلك كثير يخرج عن الحصر.

علوم اللغة: العروض

ومن عناصر الثقافة العلائية في الرسالة ما يتصل بعلوم اللغة كالعروض والنحو والصرف والشعر. وقد أثقل أبو العلاء رسالته بألوان الثقافات اللغوية على نحو ما نجد في رسالة الغفران والملائكة والفصول والغايات.

أما في الصاهل والشاحج فقد أوجد لنا سببـا وراء افراطـه في ذكر مصطلحـات العروض على هذا النحو الذي يلقانا فيها، وهو أن عزيز الدولة كان يعني بالعروض، أو كان ينظر في العروض للخليل بن أحمد، كما روى أحد معاصريه. ويرى أبو العلاء أن هذا من غرائب الأمور، وأنه عجب من العجب، لأن «الملوك قد شغلوا عن الفروض فما بال النظر في العروض؟»

(٤٢) الرسالة ٦٦٣.
(٤٣) الرسالة ٩٤ ، ١٠٥ وما بعدها.
(٤٤) الرسالة ١٧٥.
(٤٥) الرسالة ١٨٦.
(٤٦) الرسالة ٣٢٢.

ويشفع هذه العبارة بقوله مبيّنا سبب افراطه في ذكر نكت العروض «ولهذه الحكاية أكثرت الأمثال المتصلة بما وضعه الخليل، لأن العامة على دين السلطان»[٤٧]

وإذا تصفحنا الرسالة وجدناه يستخدم العروض على ثلاثة أنماط: الاصطلاحات العروضية، والأوزان وما يتصل بها من الآيات الموزونة ثم الضرورات الشعرية.

وإذا رجعنا الى الرسالة فاننا نجد أبا العلاء قد حشد فيها كثيرا جدا من مصطلحات العروض، فذكر من صفات القوافي: المطلق والمقيد. وذكر من الزحافات المفردة: الاضمار والوقص والعصب والعقل. ومن الزحافات المزدوجة: النقص والخزل والشكل. وذكر من علل الزيادة: الترفيل والتذييل. ومن علل النقص القطف والحذذ والكشف والتشعيث والخرم، وما يتصل به من تسميات بحسب ما يدخل على التفعيلية من زحافات أي اجتماع الخرم مع أحد الزحافات. فذكر من تلك المصطلحات: العضب والقصم والجمم والخرب والشتر. كما ذكر عدد الأعاريض عند علماء العروض، وأشار الى ما فيها من خلاف بينهم: فهي أربع وثلاثون عروضا عند الخليل، وثنتان وثلاثون عند الزجاج[٤٨].

كذلك ذكر عدد القوافي وأنواعها أو القابها، باعتبار حركات ما بين آخر ساكنين فيها. ونود في هذه العجالة أن نضرب مثلا واحدا على هذا الاستعمال لمصطلحات العروض، أما سائر ما ذكره من نكت هذا الفن، فمجاله غير هذه الدراسة.

وقبل أن نذكره نشير إلى أن أبا العلاء كان يستخدم تلك الاصطلاحات استخداما فنيا قبل أن يكون علميّا، حيث كان يستعين بها في توضيح الفكرة التي يعالجها سواء ما يتعلق بعزيز الدولة وما يتعلق بملك الروم؛ وأغلب تلك الاستخدامات كان يرد في مجال الصراع الحربي بين هذين الحاكمين، يقول أبو العلاء: «وان كان في عسكره بطاريق ورؤساء يجرون مجرى الوافر والكامل، لأنهما لا يبلغان رتبة أملاك الشعر ـ وهي خمسة: الطويل بأضربه الثلاثة والضربان الأولان من البسيط ـ فان السيد عزيز الدولة ـ أعز

---

(٤٧) الرسالة ٧٠٦.
(٤٨) الرسالة ٦٩١.

الله نصره ـ يلقى من كان منهم في منزلة الوافر بالعضب والعصب والعقص والقصم والعقل والنقص، ويجعل ذا الرمح منهم أجمّ. وذلك أن الخليل جعل الأعضب مثل قول الحطيئة:

ان نزل الشـتاء بدار قـوم :: تجـنّب جار بيتهـم الشتاء

وقد جاء في شعر الجعفي مثل هذا وهو قوله:

«ان تك طيّ كانت لـئاما»

والأعقص عند الخليل مثل قول القائل:

لولا ملك رؤف رحـيم :: تغمدني برحمـته هلـكت

والأقصم عند الخليل مثل قول هدبة:

إني من قضاعة من يكرهـا ::أكره، وهي مني فـي أمان

ان سكّنت الياء فهو أقصم، وان حركتها فهو أعضب.

والعقل عند الخليل مثل البيت المنسوب الى كعب بن زهير:

* وحفظـي الودّ للأخ المدانـي *

اذا خففت الخـاء.
والنقص عنده مثل قول الآخر:

أرى عـينيّ ما لـم تريـاه :: كلانا عالـم بالترّهـات

اذا لم تهمز «ترياه». والأجمّ مثل قوله:

أنت خير من ركب المطـايا :: وأكرمهم أبا وأخـا وعمّـا

وعني الخليل بالعصب سكون حركة الخامس، وهو زحاف لا يبين في الغريزة على معهود الناس، كما قال عمرو بن كلثوم:

أبا هنْد فلا تعْجل علينـا :: وأنظـرْنا نخـبرْك اليقينـا

فهذا معصوب في أربعة مواضع، وهو محتمل لا ينكسر.

وعنيت بالعصب أنهم ان شاء الله يعصبون في الاسار، أو يعصـب الـريق على أفواههم، كما قال الراجز:

يعصبُ فاهُ الريقُ أيَّ عَصْبِ :: عَصْبَ الجُبَابِ بِشِفاهِ الوَطْبِ

وإنما يعصب الريق عند الشدة والفزع. وعنيت بالعضب أحد أمرين، ان شئت كان السيف، أي يلقاهم بالعضب والقتال، وان شئت كان من قولهم: عضب اذنه، إذا قطعها وسمّى السيف عضبا لأنه يقطع. وكانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تسمى العضباء لأنها كانت مقطوعة الأذن. والأعضب المكسور القرن، قال الشاعر:

ان السيوف غدوّها ورواحها :: تركا كنانة مثل قرن الأعضب

ويجوز أن يستعار هذا اللفظ في قرن الرجل، أي جانب رأسه، فيقال: عضب قرنه، إذا ضرب هناك. وعنيت بالعقص أنه ـ أدام الله قدرته ـ يعطف أولاهم على أخراهم، كما

تعقص المرأة شعرها. وعنيت بالعقل أنه يعقلهم أي يحبسهم عن الرجوع إلى الأوطان... في قولك عقلت البعير إذا شددته بالعقال. وعنيت بالنقص ما يوقعه الله سبحانه بهم من نقص الجموع. وعنيت بالأجمّ، الرجل يكون معه رمح، فاذا أخذ منه فهو أجمّ. قال عنترة:

ألم تعلم، لحاك الله ـ أنــي :: أجمّ إذا لقيت ذوي الرماح

وقال الأعشى:

متى تدعهم للقــاء الصــبا ح تأتك خـيل لهم غير جمّ

وفي الحديث: أمرنا أن نبني المساجد جمّا، والمساجد شرفا. وهو من هذا المعنــى ... وعنيت بالقصم، المصدر من قولك: قصم الله العدوّ قصما. والقصم الكسـر.

فأما القطف الذي ذكره الخليل في عروض الوافر، فهو قطف رؤوسهم ان شاء الله كقطف الثمار. هذا اذا عرضوا للمحاربة. وان أرادوا الصلح فالصلح خير»[٤٩].

أما الزاوية الأخرى، وهي الأوزان والدوائر، فقد وجدناه في الرسالة يحشد كل أسماء الأوزان، ولا يترك منها شيئا، وكذلك أشار الى الدوائـر العـروضية الخمس في بعض المواضع بدون أسماء، وأشار في بعضها الآخر الى أسماء الأوزان التي تضمهـا بعض الدوائر. ونجد عنده كذلك طريقة قراءة الدوائر العروضية على نحو ما يقول: «وقد تحدثت العوام بأن قوما متطوّعين غزوا من ناحية الخزر. فان كان هذا صحيحا فانـه يلفـت الطاغية عن هذه الجهة، ويفكّ عزمه عن الخروج. فيكون مثله مثل الضرب الأول من الطويل أو غيره من الأوزان، إذا أرادوا الفكّ منه صرفوا وجهه عما هو عليه، ألا ترى أنك إذا أردت أن تفك من قوله:

---

(٤٩) الرسالة ٥٨٧ ـ ٥٩١.

* يا حار لا أرمين منكم بداهية * وزنا مديدا، أخذت من أوله قوله: «يا حار لا» فجعلته في آخره، فكأنه التفت عن تلك الجهة، فكذلك الطاغية فكَ، أي صرف وجهه، ان شاء الله، وتوجّه، الى ما وراءه، وكذلك:

* قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان *

اذا أردت أن تفك منه أصل المديد، أخذت من أوله :«قفا» فزدتها على آخره [٥٠].

واستخدامه كذلك للأوزان والدوائر لا ينفصل عن استخدامه الفني الذي أشرنا اليه آنفا، ولا يتجرّد عنه.

أما عن الأوزان، فنذكر قوله، وقد حشد فيه جميع أوزان العروض على مذهب الخليل، وصاغه في صورة فنية مبدعة من خلال الصراع الحربي بين عزيز الدولة وملك الروم:

«ولو نزل خميسهم بحيث يظنّ المرجفون، وهو وافر كامل، لرأيت الطويل العاتر مديدا فيهم، والخفيف المقبوض بسيطا اليهم، فكثر المتقارب عند ذلك بينهم، وسمعوا الهزج والرجز فعجزوا عن الرمل والمضارع له في تلك الساعة، وكانَ السريع والمنسرح عندهم محمودين وظلّ جيشهم مجتثّا، وعميدهم مقتضيا، واستغنى بما أخذ منهم الخليل، وحمل جهازهم على العَروض، وكثر فيهم المقيّد، وقل المطلق» [٥١].

ونراه يذكر وزنا جديدا من الأوزان المستحدثة على سبيل التصنع والتكلف، وهو وزن المهتوك، وهو يصنع من الطويل باسقاظ أول تفعيلة من كل شطر [٥٢].

---

(٥٠) الرسالة ٦٨٣ ـ ٦٨٤.

(٥١) الرسالة ٥٤٧.

(٥٢) الرسالة ٦٨٤.

ومما يتصل بهذه الأوزان والدوائر اشارته الى بعض الآيات الموزونة التي أدخلها بعض الشعراء في شعرهم، على نحو ما فعل أبو نواس بأيتي «الماعون» بعد أن حذف لام «ذلك» من احداهما فقال:

أرأيت الذي يكذب بالديـــــن فذاك الذي يدعّ اليتيمـا

وكذلك اذا حذفت «انّ» من الآية الأولى من سورة الحج تصبح من الضرب الأول من السريع على هذا النحو:

يا أيها الناس اتقـوا ربكم زلزلـة الساعة شيء عظـيم [٥٣]

أما الزاوية الأخيرة فهي الضرورات الشعرية فقـد حظيت باهتمام أبـي العـلاء وعنايته، فكاد يذكرها جميعها من خلال التصوير الفنّي لغزو الروم، وجهلـة النـاس، والصراع السياسي والحربي في تلك الحقبة.

وأول ما يسترعي الانتباه رأيه في الضرورات الشعرية، وهو أن الشاعر يضطرّ اليها اضطرارا، ولو كان الوزن الذي يستخدمه يصح بذكر الأصل لما عدل عنه الى الضروره.[٥٤]

ثم نراه يحشد مجموعة كبرى من تلك الضرورات من مثل حذف التنوين والتقديم والتأخير وتذكير المؤنث وتأنيث المذكر، وقصر الممدود ومدّ المقصور وقطع الف الوصل ووصل همزة القطع، وفك الادغام وتصحيح الأسماء المعتلة، وتحريك الساكن وتسكين المتحرك ونقل حركة الحرف في حال الوقف الى ما يجاورها، وغير ذلك.

ومن خلال استعراضنا لهذه الاستخدامات العروضية يبرز الهدف التعليمي الذي سيطر على أبي العلاء في كثير من جوانب مصنفاته الأخرى على نحو ما نجد في الفصول

(٥٣) الرسالة ٢٤٠.

(٥٤) الرسالة ٢٥٦.

والغايات مثلا، حيث نجده يشفع تلك المصطلحات بتفسير دقيق لها يكشف غوامضها، ويزيل جفافها، ولولا ذلك التفسير لصرفت الدارسين عنها، ولعله كان يهدف الى انشاء طريقة أخرى لتدريس العروض أو تبسيطه، خلافا لما ألَفه الخليل والأخفش والزجاج وغيرهم من علماء العروض.

وعناية أبي العلاء بعلم العروض قديمة أصيلة، حيث وضع كتابا خاصا في الأوزان أسماه «جامع الأوزان»[٥٥]. كما تظهر هذه العناية من خلال مصنفاته الكثيرة التي سيطر العروض عليها بشكل واضح ودقيق كما في اللزوميات مثلا.

النحو والصرف:

وإذا تركنا العروض الى النحو والصرف ألفينا أمامنا اشارات كثيرة تتناول جوانب من هذين العلمين، يستخدمها من خلال الأحداث التي صوّرتها الرسالة تصويرا فنّيا على نحو ما نرى في قوله على لسان ثعالة يصف غزو الروم: «لعله لو ظهر الى هذا الاقليم حتى يوقف جيشه بالجر، لضمّه الشاكل إذا خفض بعد الرفع ونصب وهو مكسور مجرور، ونصب وهو مرفوع. وذلك بفتح الفتاح، ولأضجع الخافض على الحال قبل المصدر،

(٥٥) اسم هذا الكتاب مختلف عند مؤرخي أبي العلاء فقد ذكر باسم «جامع الأوزان الخمسة«أ»، ويسرد القفطي ما عند ابن العديم في وصفه والاستشهاد عليه. وكذلك عند ياقوت «ب»، وكشف الظنون «ج»، وبعضهم أسماه ـ جامع الأوزان والقوافي ـ «د». ولم يذكر الاّ الاسم فقط ومن هنا نستطيع أن نعتمد على رواية ابن العديم في اسم الكتاب «وهو» جامع الأوزان»، أما الاضافات الأخرى فلا قيمة لها، خاصة وصف الأوزان بالخمسة لأن الأوزان خمسة عشر لا خمسة، على مذهب الخليل الذي وضع عليه أبو العلاء كتابه. ويبدو أن الذي ذكر الكتاب أول مرة أسقط العشر منه كذلك زاد بعضهم القوافي على العنوان. ولأن الكتاب مفقود فاننا لا نستطيع أن نثبت هل تكلم فيه على القوافي أم اقتصر على الأوزان. خاصة وأن ابن العديم لم يذكر في التعريف بالكتاب الاّ فصلا قصيرا من وزن الطويل فقط
(أ) القفطي ٦١ من التعريف.
(ب) معجم الادباء ١٥٤/١.
(ج)كشف الظنون ٤٥٤ من التعريف.
(د) التعريف ٢٠٢ «الذهبي» ـ والصفدي ٢٧٤.

وكثرت الندبة في منازل جنود الطاغية، وعجزوا عن النداء والترخيم، ووقع التمييز في غير استثناء، وتفرّق أمرهم بتصريف وادغام»[٥٦].

ويبين أن هذه الألفاظ ألغزها عن النحويين، ثم يأخذ في تفسيرها اللغوي المقصود، وهو تفسير يكشف عن براعة أبي العلاء في هذه الاستخدامات العلمية الطريفة على نحو ما وجدنا في قسم العروض فيما سلف. وأحيانا نجده يملي فصلا طويلا يتناول فيه تلك المصطلحات النحوية والصرفية على ألسنة شخوصه المسرحية يصوّر فيها أحداث رسالته، كما جاء على لسان الشاحج يصف جفلة المسلمين[٥٧]، وآثارها كما في قوله: «والملوك بعد، ينقسمون كانقسام الأفعال، فمنهم من يشبه فعله الفعل المتعدي الى مفعولين، ولا يجوز الاقتصار على أحدهما مثل: ظننت وخلت وبابهما، وذلك من الملوك من يعمل فعله في رعيته، ولا يكون له بدّ من محاربة عدوّه. ومنهم من هو كالفعل الذي يتعدى الى مفعولين، ويجوز الاقتصار على أحدهما دون الآخر مثل: أعطيت وكسوت، وذلك الذي يعمل فعله في رعيته، فيكون له عدوّ مرة يحاربه، ومرّة يسالمه. وأما الفعل الذي يتعدى الى مفعول واحد فمثله كثير في الملوك والعامة والولاة: فملك يعمل فعله في الرعية فقط، وذلك الذي تكون فوق يده يد عالية، ووال ينفذ فعله في أهل ولايته، وعامّيّ ينفذ فعله في أهله وعياله. والوحيد من بني آدم مثله مثل الفعل الذي لا يتعدى الى مفعول، مثل قام وقعد، وانما هو مقصور على فاعله لا غير. وفعل لا يصل الى العمل إلاّ بحرف جرّ، مثل مررت وبابها، ومثله مثل الأعمى والأعرج لا يصلان الى كثير من المآرب إلاّ بمعين. ومن الأفعال ما له فاعل لا يظهر، وذلك فعل التعجب في قولك: ما أحسن زيدا، فذلك مثل لمن لزم بيته من الناس، فلم يتصرف مع القوم، ولم يعايش العوام. ومن كان من أوزاع الناس يدبّر ابنه وأخاه دون غيره فهو بمنزلة كان وأخواتها تعمل في فاعل ومفعول، وهما لعين واحدة. وفي الملوك من يكون فعله كالفعل المتعدي الى مفعولين، ثم يلغى بعد ذلك، مثل ما قال اللعين المنقري:

أباالأراجيز يا ابن اللؤم توعدني   وفي الأراجيز خلت اللؤم والخور

---

(٥٦) الرسالة ٦٤٦.

(٥٧) الرسالة ٤٧٢ ـ ٥٠٤.

فذلك مثل الملك الذي زالت مملكته. وكذلك في العامة من يكون مثله مثل كان يرفع الفاعل وينصب المفعول ، ويعمل في الحال والظرف، فبينا هو كذلك جاء بعض الأقضية فصار كأحد الحروف الملغاة، مثل ما أنشد يحيى بن زياد الفرّاء:

لقد أسمى وشرّف حين عُــــدَّت ... لي الأصهار ربي في كـــلابِ
سراةُ بني أبي بكر تســـامى ... على كان المطهّمة الصـــلابِ

ف: «كان» هاهنا ملغاة [٥٨]

ولو لا خشية الاطالة لسردنا كل الاشارات النحوية والصرفية في الرسالة، وفي ما ذكرنا غنية للاستشهاد على عنايته المفرطة بعلوم اللغة، وقدرته البارعة على صوغها في أساليب فنية رشيقة تزيل جفافها وتقرّبها الى أذواق الناس.

شواهد الشعر:

وإذا تركنا العلوم اللغوية الى الشواهد الشعرية وجدنا أبا العلاء على عادته، يفرط في الاستشهاد بالشعر في مصنفاته. والشعر الذي يستشهد به في رسالة الصاهل والشاحج قد يختلف من بعض الوجوه عن شعر المصنفات الأخرى، فلأول مرة نجد عنده نثرا لقصائدأو لأجزاء من قصائده ثم يشفعها بسرد الأبيات التي نثرها، فقد نثر الجزء الذي يتعلق بالثور الوحشي ومعركته مع الكلاب الضاربة في عينية أبي ذؤيب الهذلي[٥٩] وداليّة زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان[٦٠]، ثم سرد الأبيات التي تتناول فكرته[٦١]، وكذلك معركة حمار الوحش مع الانسان وماقيل فيها من شعر[٦٢] وكذلك الأوعال والنعام وغيرها من حيوان الصحراء[٦٣].

(٥٨) الرسالة ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

(٥٩) شرح أشعار الهذليين ٢٦/١ وما بعدها، تح عبدالستار فراج، ط دار العروبة.

(٦٠) ديوان زهير ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ط دار الكتب.

(٦١) الرسالة ١٣٠ ـ ١٣٤.

(٦٢) الرسالة ١٣٤ ـ ١٤٠.

(٦٣) الرسالة ١٤٠ وما بعدها.

وقد بلغت عناية أبي العلاء برواية الشعر في رسالته أن بلغت شواهده الشعرية ألفا وخمسمائة وخمسين بيتا وبيتين[٦٤]

الفقـــه:

ومن أنماط الثقافات التي زخرت بها رسالة الصاهل والشاحج «الفقه».

وقد حظيت باشارات رائعة الى بعض القضايا الفقهية على نحو ما نجد في قوله على لسان أبي أيوب في تأويل ملاحن الشاحج وألغازه: «فإن كانت تستوجب اللعنة[٦٥] لأن ذبحها مأمور به، فقد وجبت اللعنة على «كبش ابراهيم»، وعلى عتائر الناس بمنى في أنواع النسك من التطوّع وجزاء قتل الصيد، وما يفعله المحرم من لبس ثوب أو مسّ طيب. وإني لأرى في قراح على طريقك اذا انصرفت ، باقرا ترتع، ولو علمت اناثه بدعواك لعمدت لك في روحتك بصياصيها المذلقة، فرحت الى مربطك وما في جسدك عضو إلا وهو كسير أو دام. هذا ان سلمت من اتيانها على نفسك. أفحسبت السيد عزيز الدولة .. كان يعدى على البقر وقد بلغه الحديث المروي: «العجماء جبار» . ولعلك تظن بنفسك أنك يقاد بك، وهيهات، لا قود في البهائم، الاّ أن يقتل بعضها بعضا في المعترك، فتكون دماؤها هدرا. ولذلك قالوا في المثل «باءت عرار بكحل»، وهما بقرتان كانتا في الدهر الأول. ولو اقيدت بقرة ببغل لسبّ من يفعل ذلك كما سبّ ربيع العامري فقيل فيه:

شـهدت بأن الله حق لقـــــــاؤه   وأن ربيـع العامـري رقـــــــيع
أقادهـم كلبا بكلب ولم يـــــــدع   دماء كلاب المسلمين تضـــــيع

والبقرة خير منك لأن لحمها يتقرب به الى الله سبحانه فتجزئ عن سبعة. ولي الفضيلة عليها إذا كنت مطيّة الصالحين، لأني أجزئ عن سبعة أيضا، وأنا أكثر بضيعا منها. فأما لحمك فرجس نجس، انما يرغب فيه كلب أو نحوه.

(٦٤) الرسالة ٦٧.

(٦٥) الضمير يعود الى البقرة وهي هنا جمع باقر، وليس الحيوان المعروف، انظر الرسالة ٢٤٣، ٣٥٥.

وزعمت أنه كان يأكل الصقر وقد علم ربك بطلان ما تذهب اليه أعليّ عليه السلام يفعل ذلك، وقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتحريم سباع الطير صقرها وبازيها وعقابها وغير ذلك من الصوائد[٦٦] .

فهو كما ترى قد حشد بعض الاشارات الفقهية في هذا النص حشدا يدل على مبلغ عنايته بهذه الثقافات المختلفة، فقد وجدنا فيه قصاص العجماوات، وانها لا دية فيها ولا قود في البهائم وفيها اشارات الى الهدى الذي يتقرب به الحجيج الى الله سبحانه، وهو أحد مناسك الحج، وأن البقرة تجزئ عن سبعة، وكذلك البعير وان امتاز عنها بكثرة بضيعه. كما اشار الى أنواع النسك مما يتصل بالعتائر التي يتقرب بها الى الله، سواء منها ما يتصل بالتطوّع، وما يكون جزاء لفعل محذور مثل قتل الصيد ولبس الثوب ومسّ الطيب للمحرم. وكذلك نجد تحريم لحم البغل وسباع الطير. وما دمنا في معرض القصاص والعقوبة، فقد أشار أبو العلاء اشارة طريفة الى هذه الفكرة فقال في نفس المعرض السابق: «وزعمت أنه كان إذا أتى بالعالم أمران يقتصّ منه. وأيّ فرق في القصاص بين العالم وبين الجاهل؟ أليس في الحديث المشهور: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»؟ ولعلك تذهب إلى أن العالم تشتدّ عقوبته على قدر علمه. وليس الأمر كذلك ، القصاص يتساوى فيه الجاهل وسواه[٦٧].

وقضية التفريط في بعض أركان الاسلام أثارها أبو العلاء، أو قل، أبو أيوب في انكار مزاعم الشاحج، فقال: «وأما قولك إن الأوعال في جبالها تراقب الصوم ولا تراقب الصلاة، فما غرضها عندك بما تصنع؟ أتصوم وعندها ما ترعاه؟ أتظنّها ترجو رحمة من الله بذلك؟ وأيّ صوم للذي ينبذ الصلاة خلفه؟ وقد رخص في ترك الصوم للشيخ الكبير، فأما ترك الصلاة فما رخص فيه، بل يصلي الرجل كيف أمكن حتى يصلي الغريق وهو على رفّ سفينة، والمريض وهو لايقدر على التوجّه الى القبلة.

---

(٦٦) الرسالة ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٦٧) الرسالة ٢٨٢.

وادعيت على الفقهاء أنهم يوجبون على من وطئ الجامع الغسل وإن كان طاهرا. افتزعم أن هذا الغسل فرض أم سنّة؟ فان زعمت أنه فرض فكذبت، وان زعمت أنه سنّة فقد أخطأت. لأن الغسل انما ندب اليه في يوم الجمعة قبل وطى الجامع، فأما بعد، فلا. وفي الحديث :«من توضأ فبها ونعمت، ومن اغتسل، فالغسل أفضل». على أن الناس لا يمكن كثيرا منهم ذلك، فكم من خطيب يخطب على منبر في يوم جمعة، عهده بالغسل بعيد.

وزعمت أن محمد بن ادريس الشافعي كان لا يقرب من الجامع ويبيت في الكنيسة، فجحدت بلادك: أتدّعي على رجل من قريش مطّلبي معروف بالفقه أنه كان يهجر الجوامع ويكثر المبيت في الكنائس؟ وما الذي أفقره الى المبيت في الكنيسة وهجران الجوامع، أميل الى الانجيل عن الكتاب الكريم، ورغبة في صحبة قوم ليسوا على دينه، ولا من أهل ملّته؟ ولعله لم يبت في كنيسة قطّ، ولا ترك الجامع في يوم جمعة إلاّ من عذر. والموضع الذي كان يجلس فيه بجامع المدينة، مدينة أبي جعفر معروف الى اليوم يجلس فيه الفقهاء ببغداد.

وادعيت على أبي حنيفة أنه كان يأكل لحم الفقيه دون الفرضي والنحوي، أفترى أبا يوسف ومحمدا وافقاه في هذه المسألة على رأيك؟ وقد كان في زمنه فقهاء كثير، ولو علموا هذا من رأيه لم يقارّوه ولم يساكنوه. وما رأيك في «زفر»، أكان يتابعه على هذا القول؟ (ألا لعنة الله على الكاذبين) [٦٨].

وقضية المهر من القضايا التي اختلف الفقهاء فيها اختلافا بعيدا وصوّر أبو العلاء ذلك الاختلاف فقال: «فأما الفقهاء فيختلفون في المهر اختلافا كثيرا: فأجاز بعضهم التزويج على ما قلّ وما كثر، ولم يجعل في المهر حدّا يعرف. وممّن ذهب الى ذلك محمد بن ادريس الشافعي. وقال أبو حنيفة وأهل العراق: عشرة دراهم أقل المهور. وقال مالك: المهر ربع دينار.

---

(٦٨) الرسالة ٣١٧ ـ ٣١٨.

وروى عن ابراهيم النخعي في ذلك ثلاثة أقوال: أحدها أنه قال: المهر رطل من ذهب. وهذا قول لم يأت على الجزم والايجاب. والقول الثاني: أربعون درهما. والقول الثالث أنه قال: أحب عشرة أو عشرين ليكون مخالفا لمهر البغيّ.

وروى عن سعيد بن جبير أنه قال في أقل المهور: خمسون درهما.

ورويَ عن الأوزاعي أنه قال كلاما ما معناه: أنه من تزوّج على درهم لم ينقضْ عليه قاض، فيروون أن مذهبه في أقل المهور هو الدرهم الواحد.

وقال ابن شبرمة: خمسة دراهم. وروي أن سعيد بن المسيّب زوّج ابنته على درهم... فأما الذي توجبه المروءة والديانة، فأن يكون مهر المرأة على مقدار حال الرجل: فان كان ميسورا حسن منه أن يكثر مهر امرأته. وإن كان مقترا عذر في التقصير[٦٩].

فقد سرد في هذا النص أقوال الفقهاء في المهور، كما أوضح لنا رأيه فيها، وذلك أن يكون المهر على مقدار حال الرجل، موسرا أو معسرا.

كما تعرّض لقضايا فقهية أخرى كثيرة من مثل ميراث ابن الأمة[٧٠]، والجلد[٧١]، والربا في بعض أنواع الحبوب، وما فيه خلاف بين الفقهاء[٧٢] وغير ذلك كثير.

وقد يتصل بهذا الجانب من بعيد وفرة الاشارات الى مختلف القراءات من مثل قراءة الحسن البصري: (صادِ والقرآن ذي الذكر)، وهو من المصاداة، أي المعارضة[٧٣]. وقد أشارت محققة الرسالة الدكتورة بنت الشاطئ الى أن قراءة الأئمة السبعة «ص»: «ص» والقرآن ذي الذكر لا خلاف بينهم فيها[٧٤].

---

(٦٩) الرسالة ٥٧٥ ـ ٥٧٦ .

(٧٠) الرسالة ٥٧٤.

(٧١) الرسالة ١٠٣.

(٧٢) الرسالة ٤٩٣.

(٧٣) الرسالة ٦٧٧.

(٧٤) تيسير الداني: ١٨٧.

وذكر قطرب أن الحسن كان يقرأ: صادِ، بالخفض، من المصاداة وهي المعارضة. والمعنى: صاد القرآن بعملك، أي عارضه به(٧٥).

وكذلك قراءة نافع قوله تعالى: (قَدَ اَفْلَحَ المؤمنون) باسقاط همزة القطع وإلقاء حركتها على الدال الساكنة قبلها، وهذه قاعدة عامة في قراءة ورش عن نافع (٧٦).

(٧٥) مختصر تفسير يحيى سلام، لابن أبي زمنين الأندلسي، مخطوط بخزانة القرويين، عن رسالة الصاهل والشاحج ٦٧٧ هامش ٣.

(٧٦) الرسالة ٦٦٤ هـ ٣. وللاستزادة راجع ص ١٩٧ ، ٢٤٧ ، ٥٣٩ ، وغيرها من الرسالة.

الجانب الفكري:

وإذا تركنا الجانب الثقافي في الرسالة الى غيره من الخصائص الفنية الأخرى ألفينا الجانب الفكري. وقد يثير هذا التقسيم التساؤل باعتباره جزءا أو نوعا يندرج تحت جنس الثقافة. وهذا صحيح من النظر السطحي، وأما إذا تعمقنا في الأمر فهناك اختلاف بينَ بينهما من خلال المنهج الذي أقمنا عليه دراستنا هذه، فقد عنينا بالثقافة ما اختزنته ذاكرته من تراث ومعارف وعلوم، حاول أن يستعين بها في التعبير عن الأحداث التي صوّرها في الرسالة، وقد كادت تكون إشاراته الثقافية سلبية بعيدة عن آرائه الخاصة. أما الجانب الفكري فهو الجانب الذي تفاعل فيه مع عناصر الثقافة تفاعلا إيجابيا عميقا، بدت معه أفكاره وآراؤه بوضوح، وحاول أن يناقض يعمق الآراء التي يعرض لها. وبعبارة أخرى هي صورة أبي العلاء المفكر، في حين كانت تلك صورته مثقفا. وفرق كبير بين المفكر والمثقف، وان كان ذلك من خلال تفاعله بعناصر الثقافة والفكر التي يعيها.

وقد ظهرت صورة أبي العلاء المفكر في هذه الرسالة وإن لم تكن بدرجة الوضوح التي ظهرت في اللزوميات أو الفصول والغايات مثلا. وربما كان مرجع ذلك الى طبيعة الغرض أو الموضوع الذي يعالجه في تلك المصنفات. فبينما وضعت اللزوميات والفصول والغايات لغرض فكري يكاد يكون محددا وهو التأمل في المصير الانساني: قضية الحياة والموت وما بعد الحياة الأخرى، وما تمخض عنها من نقد اجتماعي وخلقي وزهد ونظرات متشائمة بالنسبة للزوميات وجوانب من هذه القضايا وخاصة الزهد والمواعظ وما يتصل بها في الفصول والغايات. فقد وضعت رسالة الصاهل والشاحج لغرض مختلف تماما عن الغرض السابق، ولذا خلت، أو كادت، من تلك الآثار والموضوعات والأفكار التي شاعت فيهما. حتى الاشارات الى زهده، ومذهبه في الزهد ودعوة الناس اليه وتزهيدهم في متاع الدنيا، تلك الدعوة التي بنيت عليها اللزوميات والفصول لا نجد لها أثرا في هذه الرسالة. وكل ما يمكن أن نجده، وإن جاء في اشارة باهتة، الدعوة الى الانفاق وعمل الخير كما في قوله على لسان الشاحج يخاطب الصاهل: «فما بالي يا خالي لا أعرف فيك بشاشة المسألة؟

لا تكن من الذين إذا طلبت منهم الحاجة سكتوا، وإذا سئلو في الشيء المعرض نكتوا، أسق نغبة من صفنك يقيّض لك ربك من يملأ مزادتك. وأطعم المقوي ثمرة من دجوبك يحفظ ربك حائشك. وأعن حاطبك بالشبم يعظم نارك، وانصر المظلوم بالكلمة تنصر باليد واللسان. واغد البائن أكن معلّيك. وكن السابق أدع مصلّيك، وأعر الجازر مدية يطعمك من أطايب الجزور. وأعط المورد مرسا يرو غنمك. ولا تضيعنّ حقّ الرحم(٧٧).

وكذلك قوله: «من حسن عمله حسن قوله. وأبى حفل الناقة المعذرة، ومراح السوام لن ينجي الباخل من لذع اللوام اضرب المراقيب فأشبع ضيقك، وأطعم اليعاقيب. وأحلب في إنائك للعيمان إذا نزل بفنائك»(٧٨).

ومثل هذا نجده في قوله على لسان الشاحج أيضا في مديح عزيز الدولة :«يعتقد أنَ الانفاق أفضل من الاشفاق، وأن الدرهم إذا وضع في كيس فما يزال في تنكيس. وإذا هو الى المُقتر دُفِع نُمِيَ الى الجوّ فَرُفع. وكذلك ينبغي أن تكون شيم الأولياء، زيادتك في دَرّ الأيتام أبقى ذخيرة من الدر المعتام. ودعاء الفقير أنهض بك من رغاء العقير. وبِدارُك مغوثةَ الأرملة خير من بِدَرك المكمّلة. وشاة في يد فقيرك خير من شاة ترد في وقيرك . ان بقاءها في الغزر رهن بالنوب لها أو بالوِزر، للذي ملكها فلم يزكّها، وارسلها في المرتع فأبلسها. إنما هي معرضة للطارق أو السارق، سيد عمد لها بالتعذيب، أو جارمة عيال مثل الذيب. فاذا صارت أضحية كانت للناسك تحية، وذكر باق خير من سعد راق. ان الذكر من الغِيرَ محروس، يلبث فلا يزيله الدروس. فأعط مالك ولو من ذمّك، إنه اذا كثر أهمّك»(٧٩).

---

(٧٧) الرسالة ١٠٥ . النغبة : الجرعة. الصفن : وعاء من أدم يستقى به ويجمع فيه الزاد. المقوى: الذي نفد زاده. الدجوب: الوعاء، أو الغرارة. الحائش: جماعة النخل. الشبم: البرد. البائن: من يأتي الحلوبة من قبل شمالها. والمعلي : من يأتيها من قبل يمينها. المصلي: التالي للسابق.

(٧٨) الرسالة ١٧٢. السوام: الابل الراعية. العيمان: المشتهي للبن.

(٧٩) الرسالة ٩٦. الغزر: قطيع الغنم. السيد: الذئب. جارمة عيال: من يكسب لهم القوت.

ونلاحظ أن كل تلك العبارات وردت على لسان الشاحج الذي قد يكون رمزا لأبي العلاء من جهة، وللطبقة المسحوقة في عصر الصراع السياسي بين الدويلات الاسلامية كما عايشها في منطقة حلب من جهة أخرى كما سنرى. ويلاحظ أيضا أن هذه الدعوات التزهيدية لم تظهر الاّ في أوائل الرسالة، لأنها مرتبطة بقضية الغرض من كتابتها وهو اسقاط ما كان للخزانة العامرة ـ خزانة عزيز الدولة ـ من حق على أرض أبناء أخيه كما رأينا. وفرق كبير جدا بينها وبين ما نجده في اللزوميات والفصول.

بيد أننا نجد جانبا من الجوانب التي امتازت بها اللزوميات والفصول ظهر بوضوح سافر فيها، وان لم يكن على مستوى ظهوره وروعته في الكتابين السابقين، وهو قدرة الله سبحانه، والتعبير عنها وتصويرها. فبينما تأخذ شكلا متنوّعا وطريفا في اللزوميات عامة والفصول خاصة، لا نكاد نجدها إلاّ في صورة واحدة في هذه الرسالة وهي عبارة قد ترد بنصّها في مفتتح كل فصل أو مشهد حواري من مشاهد رسالته على ألسنة حيوانه على النحو التالي: «ولا يمتنع في قدرة الله أن يرد فارس كميت.. فيقول الشاحج[٨٠] أو يقول: «فيجوز، والله قدير على أن ينطق الصاهل، وهو تعالى منطق كل الحيوان، فيقول: ...[٨١]» ونحو ذلك.

أما غير ذلك فنجد آراءه الأدبية وما يتصل بها من نقد لغوي ونحوي وروايات، كما نجد آراءه الفكرية وما يتصل بها من مصطلحات الفلسفة والحرص على المنطق والتعليل لكثير من آرائه التي يُنطق بها حيوان الرسالة.

وسنعرض في هذه الدراسة لجوانب محدودة من هذه القضايا، ونرجىء التفصيل فيها لبحث آخر ان شاء الله تعالى.

ومن قراءة الرسالة تبينا مجموعة كبرى من آراء أبي العلاء الأدبية دارت حول عدد من القضايا التي تعرض لها. فنجد له رأيا في التكسب بالشعر وطبيعي أن يرفض أبو

(٨٠) الرسالة ٩٢.

(٨١) الرسالة ١٠٨ وانظر ١٩٣، ٦١٠ وغيرها.

العلاء هذا الأمر لأنه يتنافى والحياء. واذا كان أبو العلاء قد رفض التكسب بالشعر لغيره من الشعراء، فأحرى أن يرفضه لنفسه، وهذا ما كان، فقد رفض التكسب بالشعر، ورفض أن يقدّم شعره للولاة والأمراء لقاء دريهمات زائفة يسفح معها ماء وجهه، وآثر الانزواء في قعر مظلم في معرة النعمان، يتبلّغ بأدنى القوت، على أن يتردد على بلاطات الأمراء يعبَ مما فيها من ألوان الترف وصنوف المتاع، يقول على لسان الشاحج - رمزه النفسي العميق - وهو يخاطب أبا أيوب: «فاني كرهت أن اتصوّر بصور أهل النظم المتكسبين الذين لم يترك سؤال الناس في وجوههم قطرة من الحياء، ولا طول الطمع في نفوسهم أنفة من قبيح الأفعال»[٨٢].

كما نجد رأيه العتيد في الرجز واضحا في الرسالة. ومعروف أن الرجز تقوله العرب في حداء الابل ومراس الأعمال من حرب أوجذب غرب، أو سرى ليل، أو ركوب هاجرة، انما يحضرونه نفوسهم عند الونيّة ليكون مسكة للمنّة، وذريعة الى النشاط[٨٣].

ويؤكد هذه الفكرة مرة أخرى في محاورة الشاحج وأبي أيوب حيث يورد على لسان الشاحج قوله: «أو لست أنت وشيعتك، اذا سمعت الحادين بالرجز رحبت خطوتك، وامتدّت عنقك، وأدركتك أريحيّة في سيرك؟»[٨٤].

على أنه لم يقتصر على هذه الأغراض، وانما خرج الى أصناف المدح والنسيب وغيرهما من أغراض الشعر[٨٥]. وأبو العلاء يرى أن الرجز شعر، وان قيل للذي يقول الرجز راجز، وللذي ينشئ الشعر شاعر، ولكنه يرى أنه أضعف الشعر، ورؤبة والعجاج أضعف في النظام من جرير والفرزدق[٨٦]

ونراه يذكر رأي الفرزدق في الرجز حيث يقول: «إني لأرى طَرَقَةَ الرجز فأدَعَهُ رغبة عنه»[٨٧]

---

(٨٢) الرسالة ٢١٩.

(٨٣) الرسالة ٢٠٠.

(٨٤) الرسالة ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٨٥) الرسالة ٢٠٣.

(٨٦) الرسالة ١٨١ - ١٨٢.

(٨٧) الرسالة ١٨٨.

وهو يذكرنا برأيه في الرجز في رسالة الغفران، حيث جعل للرجّاز جنّة، ووضع فيها الأغلب العجلي والعجاج ورؤبة وأبا النجم وحميد الأرقط وغيرهم، وجعل لهم أبياتا ليس لها سموق أبيات الجنة، وذلك لأن الرجز من سفاف القريض، ثم يختم رأيه بقوله لهم: «قصرتم أيها النفر فقصر بكم»، وفي غمرة الصراع بين ابن القارح ورؤبة نراه يقول لرؤبة: «لو سبك رجزك أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة»[٨٨].

ومن آرائه الأدبية رفضه لبعض الأبيات التي نسبت الى بعض الشعراء ، ومن ذلك أبيات أنشدها أبو تمام لعبيد بن الأبرص، ويعقب عليها بأنها لا توجد في ديوانه، وأنّ الأخفش رواها غير منسوبة الى قائل[٨٩].

ومن ذلك بيت ينسب الى كثير في تائيته وهو قوله:

وما شامني الاّ كتاب كتبته   فليت يميني قبل ذلك شَلَّت

ونراه يؤكد أن أكثر الرواة لا يثبتونه فيها[٩٠]

وترد في الرسالة اشارة تثبت نسبة «لامية العرب» الى الشنفري الأزدي، وهي التي ذكر القالي عن ابن دريد شكّه فيها، وأنها من منحولات خلف الأحمر[٩١]، فذكر منها بيتين هما:

وليلة نحس يصطلي القوسَ ربهُـــــا   واقطُعَه التي بها يتنبّـــــــــــــل
سريت على غطش وبطش وصحـــبتي   سعار وارزيز وجنّ وأفكـــــــل[٩٢]

(٨٨) رسالة الغفران ٣٧٣ ـ ٣٧٥.
(٨٩) الرسالة ٦٩٠.
(٩٠) الرسالة ٦٥٣ ـ ٦٥٤.
(٩١) القالي: الأمالي ١٩٥/١ ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥.
(٩٢) الرســالة ٥٤٥.

وهو بذلك يثبت نسبة القصيدة الى الشنفري. كما أثبت نسبتها اليه في رسالة الغفران عندما عجب ابن القارح من الشنفري وهو يحتمل العذاب في الجحيم، ولا يكاد يشكو، فسأله عن سبب ذلك، فأخبره أنه قال بيتا في الدار الخادعة، فهو يتأدّب به وهو قوله:

غوى فغوت ثم ارعوى بعد وارعوت   وللصبر ان لم ينفع الشكوُ أجمل[٩٣]

ولاميّة أخرى تنسب الى «تأبط شرا» أو إلى ابن أخته في رثائه قيل انها من منحولات خلف الأحمر، وقد أشار أبو العلاء الى مطلعها، ولكنه لم ينسبه الى قائل، وربما كان ذلك اشارة الى ما يحوم حولها من شك[٩٤].

كذلك نجد في الرسالة جوانب من نقده، اللغوي والنحوي ونقد مختلف الروايات، وإن كانت قليلة بالقياس الى ما في رسالة الغفران التي بنيت على هذا الجانب، حتى إنه جعلها جنّة وجحيا للأدباء واللغويين والنحاة ... ونكتفي بشاهد واحد يدل بوضوح على منهج أبي العلاء في النقد، فقد ذكر بيتا ينشده أصحاب المعاني وهو:

لو وصل الغيثُ أبنينَ امْرأً   كانت له قبّةٌ، سحق بجاد[٩٥]

ثم يشرحه ويفصل القول في آراء العلماء فيه، ويناقشهم مبينا ما فيها من خطأ، ويقول: «أي لو جاء المطر واتصل، لرعت الخيل النبت فقويت على الغزو والغارة، فأغرنا على الرئيس صاحب القبة فاحتاج لأخذنا قبّته، ان يتخذ بجادا خلقا على عمودين يستتر به ويستظلّ. وبعض أهل العلم ينشد هذا البيت: «لو وصل الغيث لأبنين امرأ»... وكذلك ذكره أبو عمر في كتاب «الياقوت»، وهو خطأ لا محالة. وانما يفعل ذلك من لا معرفة له بعلم الأوزان، لأنه يرى الوزن وقد نفرت منه الغريزة، فيجذبه بطبعه الى ما يألف. ألا ترى أن قوله :« لو وصل الغيث لأبنين امرأ» هو نصف الرجز التام تقبله الغريزة

(٩٣) رسالة الغفران ٣٥٨.   (٩٤) الرسالة ٥٢٣.   (٩٥) البيت لأبي مارد الشيباني.

بلا انكار؟ الاّ أنه إذا فعل به ذلك بعد شكله من النصف الثاني. وقد روت الرواة أشياء كثيرة فأفسدوها في النقل. وسبب ذلك الذي أخبرتك به. وهذا البيت في أبيات توجد في كتاب «الصعاليك» الذي يرويه علي بن سليمان، وهي لرجل من اللصوص. وفيه أبيات قد لحقها في النقل من الفساد مثل ما لحق هذا البيت في رواية من قال: «لأبنين امرأ»، والأبيات:

سائل سليمي اذا لاقيتها	هل تبلغنْ بلدة الاّ بزاد
قل للصعاليك لا تستحسروا	من التماس وطوف بالبلاد
فالسير أحجى على ما خلّت	من اضطجاع على غير وساد
لو وصل الغيث أبنين امرأ	كانت له قبّة، سحق بجاد

وفي كتاب الصعاليك :« لو وصل الغيث أبنين امرأ» بغير لام، وهي الرواية الصحيحة، الاّ أن فيه بعد هذا البيت:

وبلدة موحشة أرجاؤها أصداؤها مغرب الشمس تناد

وقد لحق هذا البيت الفساد بزيادة هاء التأنيث، مثل ما لحق البيت المتقدم بزيادة اللام، وأشبه ذلك أن يكون من سوء النقل. وتصحيح الوزن أن يكون بغير هاء: «وبلدة موحش أرجاؤها» وبعد هذا البيت:

جاوزتها وصاحبي عيرانة في مرفقيها من الدفّ تعاد

فقد أفسد الوزن بقوله: «وصاحبي» بزيادة الواو. وانما تصحيح الوزن أن يقال: «جاوزتها صاحبي عيرانة» . وهذا الفساد متجانس. ولا شكّ أنه من جهل الرواة. وقد حكى محمد بن سلام عن يونس بن حبيب أنه قال: عجبت لمن يأخذ عن حماد، وهو يلحن

ويكذب ويكسر. ولحبيب بن أوس كتاب يعرف بكتاب «القبائل» فيه خمس وثلاثون قبيلة من معدّ ابن عدنان، وليس فيه قبيلة من قبائل قحطان، وفيه ابيات من قصيدة المرقش التي أولها :

لابنة عجلان بالجزع رسوم   لم يتعفّين والعهد قديم

وهي من وزن هذه الأبيات الماضية . وفيما ذكر حبيب فساد بينّ. فيجوز أن يكون أفسده مَن نسخ الكتاب من بعد حبيب، ويجوز أن يكون حبيب ذكرها على ذلك لأنه وجدها في النقل عليه. فأقرّها على ما وجد(٩٦).

ونلاحظ دقة النقد في هذه الرواية، كما نلاحظ موقفه من أبي تمام واعجابه به. فعلى الرغم من وجود الأبيات خاطئة عند أبي تمام فقد رأى أن ذلك الخطأ يجوز أن يكون من الذي نسخها بعده، وحتى لو أن أبا تمام هو الذي نسخها فذلك لأنه حافظ عليها كما انتهت اليه، فلم يغيرها مع علمه بما فيها من خطأ وفساد.

أما آراؤه الفكرية فهي متعددة منها موقفه من الأساطير، ونراه يشير الى عدد منها مما ذكر عن بعض المشاهير من ذبح أبنائهم كما يروي عن معدّ بن نزار الذي ذبح ابنه لقوم من جرهم مرّوا به في سنة مجدبة وعمرو بن فقاس الذي سكر يوما فذبح ابنه. ويرفض أبو العلاء مثل هذه الروايات مؤكدا أن هذا لا يصحّ في الجاهلية فضلا عن أن يصح في الاسلام.(٩٧)

ومن ذلك ما يرويه الناس من صداقة الغراب والديك، وأنهما «كانا يتنادمان، فشربا عند خمّار أياما، فلما نفد شراب الخمار وأحسّ الغراب أنه يريد الثمن أصبح يوما والديك نائم فقال للخمار: إني ماض فآتيك بحقك، وصاحبي هذا رهن عندك على مالك. وذهب فلم يعد. وذكر ذلك أمية بن أبي الصلت الثقفي فقال

---

(٩٦) الرسالة ٥٤٠ وما بعدها.   (٩٧) الرسالة ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

بآية قام ينطق كل شـــــــــيء   وخان أمانة الديك الغـــــــراب
أقاما يشربان الخمر دهــــــــرا   فخان العهد اذ نفد الشـــــــراب

فمثل هذا الحديث لا ينبغي أن يلتفت اليه، وإنما تلك أكاذيب تحدّث بها أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وسمعها أميّة بن أبي الصلت وغيره فنظمت في الشعر. وأمية توجد في شعره أخبار كان ينقلها من الكتب الموجودة في أيدي أهل الملّتين المخالفتين، منها أن الهدهد قبر أمه في رأسه، فلذلك ريحته منتنة[٩٨].

ومن ذلك ما يقوله حول أخبار «نقل الطائر الى غير جنسه والرجل الى النعامة والطير، فهذا أمر يشهد المعقول بأنه محال. وقد روى بعض أصحاب الحديث أن الضب قُدِّم الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إن أمَة مسخت». فلا ادري لعل هذا منها. وروى في مسخ ابن مقرض وابن عمرو والغراب والفيل ما هو مشهور. ولا ندفع أن الله تعالى يقدر على نقل الأعيان. وإنما الكلام في اجرائه ذلك على أيدي الآدميين[٩٩] .

وطبيعي أن ينكر أبو العلاء كل هذه الخرافات لأنها مخالفة للعقل، خاصة وأنه كان يجلّ العقل ويجعل له سلطانا قويا[١٠٠] .

كذلك نجد له رأيا فى السحر، فهو يثبته، شأن الفقهاء الذين وضعوا أحكاما للساحر، وذلك لأن القرآن أثبته فى قوله تعالى فى قصة هاروت وماروت: "فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ"[١٠٢][١٠١] (سورة البقرة).

وهو إذ يثبت ذلك يشكّ في أن سحرة فرعون كانوا من هذا الضرب، ويرى أنهم انما كانوا يخيلون أن العصّي والحبال ساعية فيما ترى العين[١٠٢] .

---

(٩٨) الرسالة ٢٤٩.
(٩٩) الرسالة ٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(١٠٠) أنظر اللزوميات، دراسة موضوعية وفنية: سلطان العقل عند أبي العلاء، للمؤلف.
(١٠١) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة.   (١٠٢) الرسالة ٣٠٧.

كما نجد له رأيا في التطيرّ يذكره على لسان الثعلب في حديثه مع الشاحج عن أسماء بعض قرى الشام على طريق الغزو الرومي لحلب، وهو يوجّهها توجيها يدل على تطيرّه لكراهته اياها من مثل: جرجنار والكفير وعجاز والحيار.. ويستند في كراهته تلك الى كراهة الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض الأسماء مثل: شهاب حيث استبدل به هشاما، وسَمّى الحباب بن المنذر عمرا، لأن الحباب شيطان، وهو من أسماء الحيات. ورفض أن ينزل المتسمّى «مرة» الى البئر في غزوة الحديبية، وسمح لناجية. كما أنه ـ ص ـ كان يعجبه الفأل. ونراه يؤكد هذه الصلة بين الفأل والطيرة، فيقول: «إذا رددت الفأل والطيرة الى القياس وجدتهما يصدران عن غار واحد»[١٠٣].

ومن الجدير بالذكر أن جوانب كثيرة من الرسالة على لسان الشاحج وثعالة قد ترددت فيها الأسماء بين الفأل والطيرة: الفأل للمسلمين، والطيرة للروم.[١٠٤]

وهو لون من ألوان التلاعب اللفظي أو الاشتقاق اللغوي في الرسالة من خلال هذه الأسماء.

ومن آرائه تلك رأيه في تسبيح الجوامد من خلال قوله تعالى: «وان من شيء الاّ يسبّح بحمده»، فيرى أن تسبيح الحجر وما جرى مجراه انما هو أثر الصنعة فيه وشهادته للعاقل اذا رآه أن له بارئا قديرا يفعل ما يريد[١٠٥]

غير أن هذا الرأي لا ينطبق على قوله تعالى: «ولكن لا تفقهون تسبيحهم»، فالآية تثبت عجز الانسان عن فهم تسبيح تلك الجوامد، وهذا مخالف لما ذهب اليه من أثر الصنعة فيه وشهادته لخالقه، فذلك موجود في الجوامد مدرك، ومع ذلك فقد أثبت القرآن أننا لا نفقه تسبيحهم. واذن فتسبيحهم يجب أن يكون غير ما رآه الشيخ.

(١٠٣) الرسالة ٥٠٧ ـ ٥٠٨.

(١٠٤) الرسالة ص : ٦٤٩ وما بعدها.

(١٠٥) الرسالة ص: ٢٤٢.

ومن الجوانب الفكرية عنده المنطق وما تتّسم به آراؤه في كثير من الأحيان من دقة التعليل. ولعل هذا أثر من آثار مكانة العقل عنده كما عرفناها في اللزوميات، وكما نرى في هذه الرسالة من حوار وجدال وحجاج بين شخوصها المتعددة. ومع كل حوار نجد جوانب كثيرة من هذا التعليل الذي يعتمد على المنطق [١٠٦]. كما نجد عنده اشارات الى كثير من المصطلحات الفلسفية من مثل الجوهر والعرض، والقياس وإبطال السوفسطائية له، وكذلك قدم العالم والقائلين به، والقضية والمحمول والجنس والنوع، كما في قوله: « واذا ركّبنا القضية الثنوية الكلية فجعلنا المحمول جنسا والحامل نوعا، فالقضية كذب لا محالة. واذا عكسنا ذلك فجعلنا المحمول نوعا والحامل جنسا كانت القضية صدقا. فتقول: كل رجز شعر، فيكون قولا صادقا. وإذا قيل: كل شعر رجز فذلك باطل من المقول» [١٠٧].

كما نجد عنده اشارة الى التناسخ على لسان الصاهل في حواره مع الشاحج منكرا ادّعاءه نظم الشعر، يقول: «لقد ادّعيت من علم الشعر ما تعلمنا الضرورة اللازمة أن زهيرا والنابغة وغيرهما من الفحول، لم يعرفوه. فليت شعري ما يقول فيك أصحاب التناسخ؟ أفنقلت اليك روح أفلاطون؟ ومعاذ الله والعدل الشائع [١٠٨]».

ثم تأمل في هذه المحاورة الأخرى التي أنشأها بين أبي أيوب والشاحج في محاولة تأويل ألغازه وملاحنة : «وزعمت أنهما كانا يأخذان البثّ بأيديهما فيضعانه في أفواههما، وذلك من المنكرات، انما يؤخذ باليد ما تشغل به الأماكن. فأما الاعراض، فلا يقدر أحد أن يدّعي فيها ذلك. هل يمكن رجلاً أن يقبض على البياض أو السواد أو الرائحة؟ ولكن اختلف المتكلمون في الحركة، وهي عرض، فقالت طائفة: الحركة لا ترى، وهو مذهب النحويين. وقالت طائفة أخرى: بل الحركة مرئية، وليس لها تعلق بهذا القول. وقد نفى بعض المتكلمين الأعراض، والى ذلك ذهب الأصمّ ومن أخذ بقوله. ولو جاز أن تقبض الأكفّ على البثّ، جاز أن تقبض على السرور وعلى الغيبة وعلى الظنّ وعلى غير ذلك من الأعراض» [١٠٩].

(١٠٦)انظر: ١١٠ ـ ١١٤، ١٩٩ وما بعدها.

(١٠٧) الرسالة ص ٣١٩ ، ١٧٩ ، ١٩٠ ، ١٨٢.

(١٠٨) الرسالة : ١٩٤.

(١٠٩) الرسالة ٢٣٧.

اللغـــة :

واذا تركنا الجانب الفكري الى الجانب اللغوي ألفينا اهتماما بالغـا باللغـة في هذه الرسالة. وهو اهتمام حظيت به سائر مصنفات أبي العلاء، لما وفّر لها من عناية باللغة والاغراب في كثير من المفردات التي استخدمها فيها.

ولعل من أهم ما يميز الأدب العلائي الافراط في استخدام غريب اللغة، والعناية بانتقاء الألفاظ. ولا تظنّ أنه كان يجهد نفسه في اختيار تلك الألفاظ، لأن من كان له مثل ذكاء المعري وحافظته العجيبة والذي كان يحفظ ما يمر بسمعه، وإذا حفظ شيئا لا ينساه، والذي كان يعرف كل ما أثر عن العرب من ألفاظ اللغة، ومن كان يحفظ المخصص والمحكم، أقول، أن من كان على هذه الصفات، لا يجهد نفسه في حشد تلك المفردات، وصوغها في هذه القوالب الرصينة الرائعة التي نجدها في مصنفاته، فقد غدت قضية الاستخدام اللغوي عنده قضية فنّه النثري على وجه الخصوص، حيث كان يعتمد اعتمادا كلّيا على اللغة، ولا يكاد يترك لفظة غريبة أو نادرة الاستعمال مما يعرفه العرب دون أن يخرجها اخراجا جديدا. ولو حاولنا وضع معجم للغة المعري لتشكّلت لدينا قطعة كبيرة من المعجم اللغوي العام. بيد أنه يفترق عن أصحاب المعاجم، على اختلاف أنماطها، إفتراقاً بيّنا، فهو يصوغ ألفاظه الغريبة في أطر أدبية رصينة توضح معانيها توضيحا يختلف عن أصحاب المعاجم التي يغلب عليها الجمود والجفاف، فضلا عن التفكّك الذي يسيطر عليها لاعتمادهم على ابراز معانيها مجرّدة عن الاستخدام اللغوي والأدبي الرصين كما في الأدب العلائي مثلا. غير أن الاستخدام اللغوي عند أبي العلاء ليس على وتيرة واحدة، إذ إننا وجدناه في الفصول والغايات يحاول أن يحشد بعض المواد اللغوية حشدا يكاد يكون كاملا، وهو فيها يختلف عن غيرها من المصنفات.

ومن يرجع الى هذه الرسالة يجد الجانب اللغوي يسيطر عليها سيطرة دقيقة، ونكاد لا نجد عبارة واحدة تخلو من لفظ غريب، وتحس عند قراءتها أنك أمام عالم وعى اللغة وعيا دقيقا، قادر على أن يصوغها صياغة أدبية عالية، فقد كان ينتقي ألفاظه انتقاء حاذقا.

وتبرز ظاهرة اللغة والغريب في الرسالة، اضافة الى ما ذكرنا في قسم الملاحن والألغاز التي وردت بوفرة على لسان الشاحج، وما جاء على لسان أبي أيوب من تخريجات وتأويلات، وما شفعها به الشاحج من تفسير لتلك الملاحن والألغاز، كما يظهر ذلك في مختلف الأسماء وتأويلاتها على سبيل الفأل والطيرة، كل ذلك يدل على امتلاك أبي العلاء لناصية اللغة وسيطرته على غريبها خاصة ومفرداتها عامة.

ولكي يتضح هذا الجانب اللغوي نذكر قطعة من الرسالة تبرز الجانب اللغوي فيها، يقول: «وكأني بوالي هذا المصر، كامل صنيعة السيد عزيز الدولة.. وقد ركب لحياطة الجالية، وكَفَّ الدَّعَرَة، وقد سكنت الدَّمُوكُ المجعجعةُ لطعامه على النَّقْمىَ، وهرب الفَعفَعيُّ الذي كان يَسْحَط له النَقَدَ، ويَشْصِبُ أولاد الحذَف، وخَمَد حميسُ الحَضَّاءِ الخامِط لخوانه البذجَ أو العُمْروسَ في آينِ الآزَّةِ من المُغرغِرَات، مَنْ يُلقِي الى صاحب قِناعِه شبيهاتِ الزبرقان» (١١٠).

وقد كان يعدل عن بعض الألفاظ العادية، ويميل الى الألفاظ التي تظهر فيها آثار الغرابة والغموض، واقرأ قوله: «واما قلة مبالاتك بالدعاء فبغى منك وعليّ أن أنتظر بك مُنْصِلَ الألّ، ثم استقبل زَمَمَ العُرُشِ فأقول: يا عَوْدُ يا عود، لا قُدِر لك جَوْد. نَقِبْتَ وحَقِبْتَ، وأصبْت الفاحشة فعوقبت، ومنيت بالأوْق المُثقِل في صعود ذات الزقبات تحت الهاضبة في الأرض المُقدِرة، وكَمِمْت كَمَناجذَ، وصَمِمْت كالزَّبَاب وعرِجت كالقَزلاء، وفلِجْت كفالج أبان، ولا طلعت من هذا النقْب الاّ وحَلَمُك مشابه حَلَم السقْب، حتى يهزأ بك فُصلان من ولد ولدي، وحتى تكون الناضرةُ بينها وبين مشفرك قيد الأنْمُلة فلا تراها عينك، ولا يسوفَها أنفُك، فتميلَ بها الى الحِرْبِشُ النائمة فَيلْسَّها فمُك، وحتى يشايع الراعي بالابل فتقبلَ اليه من عُوط وعِشار جمعها بالزجرة من بعيد الغيطان، وأنت قائم لا

(١١٠) الرسالة ٤٤٦. الدموك: الرحي. النقمي: سرعة الأكل. الفعفعيّ: القصاب. سحطة: ذبحة سريعا. النقد: جنس من الغنم صغير الأرجل. الشصب: السمط والسلخ. الحذف: غنم سود صغار. حميس الحضاء: نار التنور، الخامط الشاوي. البذخ: ولد الضأن ، العمروس: الخروف. الغرغرة: صوت القدر اذا غلت. الآزة: من الأزيز وهو صوت غليان القدر. القناع: الطبق.

تسمع، ولو وُضعت اليراعة على سم أذنك، وحرّقك الظمأ ثم صادفك ماء ملح وأكلك البُرامُ الطِلح، وغودرت بملاعب الوحش ليس في جسدك مجذٌ أُعلَّ الاّ وقد اجتمع فيه عَلاّن. وان أصابك قَطَمُ الفحول السامية فسدِمْت، وان نبا بك المرتع فهُزمت. ونبحك أحد الحاميات وأنت من صممك لا تسمعه ولا تراه حتى تطأه فينشب نابه في سعدانتك فيصَيبك مما صنع بك داءُ الكَلَب؟ ـ أفتظن أن مثلك يطلب له دماء الملوك حتى تختلط له بالاشفية؟ وجمع لك الدبغ والصرر والجذل والصب والعضض والهدل والفنين ـ والخُمال والهُيام ، ولا رُزقت ممارسا مثل عُبيد فيداويك من هذا الكيد وسقط فوك حتى لاتصل إلى أكل الورقة من الشجر كما تأكلها الأبل. ومسَت عينَك شوكة، فاذا هي بأذن الله فقيء، وبقيت رديًا في الفقرة، وعُوير ينقر كريمتك، وأبو مَذقةَ ينوش رزقا في عجُزك وانت حيّ بالرمق، ماقئت جُريعة الدقر، وأوقد على كبدك نارَة العُشرُ، حتى إذا دنوت للمشرب فلقيك دونه المصردُ فمكثت لاتصدر ولا ترد، ولا طُلت أجزاعُك،، ولا فارقك نزاعك. سألت مهجتك من شوقك إلى السَّيال، وسدِرت عينك فلم تَرَ السدر، السلم وضَـؤُلَ شخصك فلم تصل الى الضالة، وطُلحْت دون الطلحة، ولا سلمت لذوائب السلم، ولا مرت سعدانتك على السعدان. وإذا رأيت البارق فطربت، ولا أعدّت لك غَنيّة متى جريت. وقُدر لك عَرٌّ وعُرٌّ، فيف رُّ منك عبدُ وحرَ، وخشيَت الابل عدواك فلم تشرب معك من حوض، وهابت أن تراعيك في الروض، بل تغادرَك خوفا مما قُدر، غِدارَ البادية غريبا جُدر ورُميت بالشوق الطارق الى اليفك المفارق، وأضعف السقم حسَّك حتى يوجَدَ هديرك القاصفُ كفحيح الأفعى الفانية..»[١١١].

أرأيت قدرة أبي العلاء على الاستخدام اللغوي وما يتصل به من تفريع للمعاني وتجنيس لغوي وتلاعب بالألفاظ، واستخدام للغريب والنادر من الألفاظ.

ومن هنا نتبينّ صعوبة قراءة الأدب العلائي، وما يحتاجه قرّاؤه من مراجعة للمعاجم لمعرفة معانيه ومراميه. ولعل هذا ما دفعه الى أن يضع كتابا آخر في تفسير غريب الرسالة أسماه «لسان الصاهل والشاحج» في ثماني عشرة كراسة [١١٢]. سواء أطلب منه ذلك عزيز الدولة أم طلاّبه الذين كانوا يتحلّقون من حوله.

---

(١١١) الرسالة ٣٧٩ وما بعدها.

(١١٢) ابن العديم: الانصاف والتحري ٥٣٢ من التعريف.

وجانب لغوي آخر في الرسالة هو ذكر طائفة من لهجات القبائل مثل طيِّئ وربيعة وأسد. كما نجد عنده اشارات الى ما وقع فيه بعض العلماء من تصحيف بعض الألفاظ، من ذلك ما يروى عن المفضّل في قوله:

وذات هـدم عار نواشـرها تسـكت بالماء تولـبا جدعـا

أي : سّيِّئ الغذاء، أنشده المفضل: «جذعا». وصحف بعض أهل العلم:

عننا باطلا شدوخا كما تعـ تر عن حجـرة الربيـض الظـباء

فقال: «كما تعنز». وصحف بعضهم قول أبي ذؤيب:

* بذمائه أو ساقط متجعجع * فقال: «بدمائه» وصحف آخرون قول الكميت:

وخضنا بالقـرات الى تمـيم وقد ظنّـت بنا مضـر الظـنونا

فقالوا: «الفرات». ومثل هذا كثير. وهذه دعوى من بعض العلماء على بعض. وقد يجوز أن يكون من ادّعى عليه التصحيف سمعه من العَرب كذلك.

ودخل بعض البصريين على الفرّاء فسمعه يملي بيت القتّال الكلابي:

يا قاتل اللـه صبيانا تجـيء بهم أم الهـنيبر من زند لهـا وارى

فقال الفراء: «أم الهنيّين». فتركه حتى اذا قام الناس قال: أصلحك الله، انما هو :« أم الهنيبر». فأفكر الفراء قليلا ثم قال: يرحم الله أبا الحسن، ـ يعني الكسائي ـ ربما أنشدنا البيت والبيتين على غير سماع.

ورووا أن يعقوب بن السكيت صحّف قول عدي بن الرقاع:

وعـلا الصُّلبُ فاستتبَّ الـى حيـ ـث يكون العُرشـانِ منه الفِقـارُ

فقال: «الفرسان». ومثل هذا كثير.[113].

كما نجد في الرسالة مجموعة من آراء أبي العلاء اللغوية منها تذكير «الفأل» خلافا لما يدّعيه بعض العلماء من تأنيثه معلّقا عليه بأن ذلك لم يصح عنده[114].

ومن ذلك تعليله لجمع ما لا يعقل جمع من يعقل، وأن ذلك لتعظيم الأمر كما قالوا: لقى منه البُرجين والأمَرّين والأقورين[115].

ومن ذلك ما جاء على لسان الشاحج في حواره لثعَالة في اشتقاق «الضيون» إذ يقول «أتدري يا ثعالة من أيّ شيء أشتقّ «الضيون»؟ وهيهات، لعلّ سميّك أحمد بن يحيى الشيباني ما سمع خبرا لذلك، وهو نادر من الكلام لأن ياءه لم تدغم بالواو، فاذا كان من ضان يضون فهو فعيل، والى ذلك ذهب الناس في وزنه. وان كان فعولا، فهو من ضان: يضين، وكلا القولين ممات. ولا يقعنّ في وهمك أن اشتقاقه من الضأن، فان الضـأن مهموز. أليس في الكتاب المجيد: (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين)؟ ولا يغرنّك قول الشاعر:

أصبحت فنّا لراعـي الضأن أعجـبه ماذا يريبك منّي راعـي الضان

فان تخفيف الهمزو من «الضان» جائز في النثر والنظم، ويكون لازما في القـوافي المليّنة. إلاّ أن الحكم في الاشتقاق للهمزة[116].

ونكتفي، خشية الاستطـراد والاطالـة بهـذه الأمثلـة لتعطـي صورة متواضعـة للاستخدام اللغوي في رسالة الصاهل والشاحج.

(١١٣) الرسالة ٣٠١ ـ ٣٠٤.
(١١٤) الرسالة ٦٩٦.
(١١٥) الرسالة ٦١٧.
(١١٦) الرسالة ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

السخرية:

أما الخصيصة الأخرى التي تمتاز بها الرسالة فهي السخرية والتهكم والطرافة، وهي جوانب شاعت فيها شيوعا عجيبا. وقبل أن نستعرض شواهد هذه الخصيصة واشاراتها نودّ أن نبين أن ثمّ فرقا كبيرا جدا بين رسالة الصاهل والشاحج ورسالة الغفران في السخرية والتهكم: فعلى الرغم من وفرة الاشارات الساخرة في الصاهل والشاحج فانها لم تبلغ ما جاء في الغفران. ولعل أشدّ ما تبدو السخرية في هذه الرسالة في تأويلات أبي أيوب، لأنها تخريجات لأمور غير معقولة، وهي غير مرادة للشاحج.

كما ترد على لسان الشاحج اشارات كثيرة فيها، منها سخريته من الصاهل ومن الجمل، ومن الضبع، كما نجد سخرية الصاهل من الشاحج وسخرية أبي أيوب منه كذلك... كما نجد في الرسالة سخرية أخرى مغلّفة بعزيز الدولة ورجال بلاطه، وبخاصة اذا قارنّا بين رأيه فيه في الرسالة، ورأي التاريخ فيه، كما بيّنا ذلك في بداية البحث، وهو رأي يدركه المعري بلا شك.

ومن أمثلة السخرية في الرسالة سخرية الشاحج من الضبع باعتبارها من أحمق البهائم، كما تجسّدت في هذا الحوار الذي دار بينهما حول كناها الثلاث: «أم عامر وأم عوير وأم عمرو على هذا النحو: فأخبرني، أصلحك الله، أايّاي عنى القائل بقوله:

تصدّ الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

فيعجب الشاحج من حمقها، ويقول متهزّئا: وهل عنى غيرك؟ واياك عنى جرير بقوله:

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة ردّي عليّ فؤادي كالذي كانا

وكل ما تسمعينه في الشعر الغزِل من أم عمرو وأم عامر، فإياك عنى به الشاعر، اذ ليس في الأرض بهيمة أحسن منك، لا سياً مشيك، ألم تسمعي قول الشاعر فيك:

غـرّاء فرعاء مصـقول عوارضهـــــا تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحـــل
كأن مشيتها من بيت جارتهــــــا مرّ السحابة، لا ريـث ولا عجــــل

فيسمع الجمل ذَرْءَ قوله فيقول: يا جَعارِ، كم لحق بك من عار، آنّك لبغيٌّ أتلَى، هل لك في رجال قتلى؟ ان هذا الكذاب يهزأ بك وأنت لا تشعرين.

فتقول: أحبك صادقا أبا أيوب، لقد سمعت هذه الأبيات وهي في امرأة يقال لها «هريرة». فيقول الشاحج: أنْشدُكِ اللهَ هل تعلمين أنك تهرّين عند المطعم؟ فتقول: اللهم نعم. فيقول: أنت هريرة لا محالة. فتقول: الآن علمت صدقك وتحامل أبي أيوب عليك. ولي صديق من كلاب حلب ـ حرسها الله ـ يخرج اليّ في الليالي المقمرة، وبينه وبين بعض كلاب الصيد مودّة. فألق اليّ ما تريد، ألقه الى الكلب الحلبي، يلقه الكلب الى صديقه من الكلاب الصائدة، يلقه ذلك الى البازي فيبلغ لك ما في نفسك. فيقول: جزيت خيرا، إن إسنادك لبعيد(١١٧).

ومن ذلك سخريته من أبي أيوب وما تبع ذلك من أشغال شاقة لمدة شهر عقوبة على سوء فَعلته عندما هجم على الشاحج وأزم جحفلته(١١٨).

ومن ذلك سخريته منه ومن الصاهل عندما وصف الجمل بأنه من ولد عسكر الذي أهداه الثقفي الى عائشة ـ رضي الله عنها فشهدت عليه يوم الجمل.

وإذا كان الجمل من ولد عسكر المشئوم فالصاهل سليل داحس والغبراء وما جرّا من شؤم على عبس وذبيان (١١٩)

(١١٧) الرسالة . ٤١٠ ـ ٤١٢. (١١٨) الرسالة ص ٢١٤. (١١٩) الرسالة ص ٢١٨.

وأحيانا كانت تأتي السخرية والفكاهة في صورة نكتة سريعة أو لمحة خاطفة أشبه بلقطة كاريكاتورية ساخرة على نحو ما نجد في قول أبي أيوب للشاحج عندما ادّعى أن أحدا من أهل سرمين وقنسرين لا يقدر أن يمسّ ذنب الدجاجة: «ولو سمع هذه المقالة عنك أهل التسرّع والخفّة من شبّان هذين الموضوعين، لجاز أن يقصدك بمحلّتك أربعون منهم أو خمسون، كلهم قابض على ذنب دجاجة يكذّبونك بذلك، ويعلمون الناس تخرّصك»[١٢٠]

أما قضية السخرية والتهكم من عزيز الدولة، فهي قضية شائكة، وذلك لأن أبا العلاء يرسم شخصيته رسما أدبيا من خلال غرض الرسالة، فهي اذن صورة تفرضها المجاملة أو الشكر والعرفان بالجميل. والأحداث التي عالجتها الرسالة لا تكاد تبرز صورة شخصية العزيز ابرازا دقيقا أو شبه دقيق، ولذا فالتهكم الذي قد نلمحه نحن أو غيرنا في صورة عزيز الدولة لن يكون أكثر من فرض أو احتمال، قد يصح، وقد يخطيء، حتى التاريخ، لا يكاد يعطينا صورة له تزيد في بعض جوانبها عمّا نجد في الرسالة. فهو أحد حكام حلب الكثيرين الذين شهدتهم هذه الفترة الحافلة بألوان الصراع السياسي والحربي بين الدويلات الاسلامية المتناحرة وبين المسلمين والروم، وهو رومي الأصل، وكان مولى منجوتكين مولى العزيز الفاطمي، وقد ولاّه الحاكم حلب. ولقرب حلب من الحدود البيزنطية فقد شهدت صراعا حربيا عنيفا مع البيزنطيين منذ عهد سيف الدولة. وكانت له علاقة مع البيزنطيين لدرء خطرهم ودفع تهديدهم المستمر لهذه المنطقة، وكان ذلك يتمثل في الهدايا والأموال والمعاهدات. ثم طمع في الاستقلال عن مواليه، فاستنجد بالروم عندما علم بتسيير الحاكم الجيوش المصرية اليه. ولما مات الحاكم وتولى ابنه الظاهر، تظاهروا بالرضا عنه، ورجع الجيش الفاطمي، فأرسل لبسيل ملك الروم بخبره بانتقاض ما كان بينهما من الشرط وهذه الأحداث كلها سجلتها الرسالة تسجيلا دقيقا كما رأينا. واذن فيما يمكن أن نلمح من وراء الألفاظ والعبارات التي استخدمها أبو العلاء لتصوير شخصية عزيز الدولة هو ما تدعمه آراؤه في الحكام والساسة بشكل عام، وهي آراء جريئة صريحة تمقتهم وتؤلب الناس عليهم على نحو ما نجد في اللزوميات كقوله:

---

(١٢٠) الرسالة ٣٢٧.

أرى امراء الناس يمسون شــــــــرّهم		اذا خطفـوا خطف البزاة اللوامــــــــع
وفي كل مصر ـ حاكم فموفّـــــــــق		وطاغ يحابي في أخسّ المطـــــــامع
يجور فينفي الملك عن مســـــــتحقّه		فتكسب أسراب العيون الدوامـــــع
ومن حوله قوم كأن وجوهـــــــــهم		صفا لم يلينّ بالغيوث الهوامـــــــع
عدول، لهم ظلم الضعيف ســـــجيّة		يسمّون أعراب القرى والجوامــــع[121]

وقوله من لزومية أخرى:

وأرى ملوكا لا تحـوط رعـيّة		فعلام تؤخذ جزية ومكوس[122]

وقوله:

ان العراق وان الشام مذ زمــــــــن		صفران ما لهما للملك ســـــــــلطان
ساس الأمورَ شياطينٌ مســــــــلّطة		في كل مصر من الوالين شـــــيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهـــــم		ان بات يشرب خمرا وهو مبطـــان[123]

وكثير غير ذلك...

ولعل ذلك من أهم الأسباب التي جعلته يعتزل بلاطاتهم.

واذن فعزيز الدولة ليس أكثر ولا أقل من أحد أولئك الحكام الذين تعاقبوا على حلب في حياة أبي العلاء، والذين بلغ عددهم زهاء ثلاثة وعشرين واليا، واذن فلن يكون عزيز الدولة في الصاهل والشاحج غير عزيز الدولة في التاريخ، ولكنه لم يطلعنا على حقيقة رأيه فيه بصراحة ووضوح لارتباطه بغرض الرسالة كما أسلفنا.

١٢١) اللزوميات ٢/ ٩٤ ـ ٩٥.
(١٢٢) اللزميات ٢/٢٩.
(١٢٣) اللزوميات ٢/٣٤٥.

وعلى هذا النحو يمكننا أن نوّجه كل ما وقع لدينا من صفات عزيز الدولة توجيها يتّفق ونظرة أبي العلاء في الحكام الولاة، والتي تتفق بدورها ونظرة التاريخ. ولذا فكل ما نجد في الرسالة من مدح وثناء على عزيز الدولة وما يتصل به من تكرار ألقابه فيها أكثر من سبعين مرّة، من مثل: «عزيز الدولة، تاج الملة ـ أمير الأمراء، أعزّ الله نصره»، وما شابه ذلك لا يمكن أن يكون الاّ لونا من ألوان السخرية والتهكّم بهذا العزيز الذي ذاق الناس منه الأمرّين كما صوّر ذلك الشاحج في جفلتهم من الروم، تلك الجفلة التي أطلق عليها التاريخ جفلة عزيز الدولة، لأنها بسببه. وتلك المعاهدات التي صوّرتها الرسالة وما تبعها من هدايا منها «الغلمان» الذين أشار اليهم ثعالة [١٢٤].

أما ما يتعلق بشخصية عزيز الدولة فقد ظهرت السخرية والتهكم بها في صور عدّة منها ما أشيع من اهتمامه بالشعر والعَروض وهما ليسا من شغل الحكام والولاة أو الملوك، يقول على لسان الثعلب: «الملوك قد شغلوا عن الفروض، فما بال النظر في العروض؟ [١٢٥].

وقد امتدّت سخريته الى رجال بلاطه، فذكر ما تناقلته العامة من أخبار الخلاف بينه وبين مضيء الدولة بسبب حديث جرى لبعض أولاده على شرابٍ وانتشاء [١٢٦].

واقرأ هذه العبارة التي وردت على لسان أبي أيوب لعلك تحسّ فيها آثار السخرية والتهكم اللاذع بعزيز الدولة: «ومن الذي أوهمك أن مثلك يسمع له قول، أو يعرف منه ايماء؟ ان كان بلغك ذلك من أهل حلب ـ حرسها الله ـ فان حب السيد عزيز الدولة، أمير الأمراء ـ أعزّ الله نصره ـ قد غمر قلوبهم، وغطّى أعينهم، ومن الكلام القديم: «حبّك الشيء يعمي ويصم»، لا سيا قوم عدول يعرفون بـ «بني سنان» يغلون في وصف هذا السلطان ـ أطال الله بقاءه ـ فيزعمون أن كفّه أسمح من اللافظة، وان قلبه أشجع من قلب أسامة، وأنه بالرعيّة أبرّ من الوالدة، وان رأيه أهدى للضُّلّال من جدي الفرقد، بل من الشمس الطالعة، ويدّعون له ضروبا من فضائل متباينات لا يجتمع مثلها في الآدميين. ولعلك بلغك عن هؤلاء القوم أنهم يدعون للسيد عزيز الدولة أمير الأمراء، أنه

(١٢٤) الرسالة ٦٩١. (١٢٥) الرسالة ٧٠٦. (١٢٦) الرسالة ٦٩٩.

أوتي ما أوتيه سليمان، صلى الله عليه، من معرفة كلام الطير والبهائم وصنوف الحيوان. فإن كان نقل اليك هذا الخبر فمثله يحملك على تكليف حاجتك من يمرّ بك. وهل تقبل شهادة جميل لبثينة أو كثير لعزّة؟ وما أنكر أن السيد عزيز الدولة، أمير الأمراء ـ أعز الله نصره ـ كما وصف هؤلاء، غير أني لا أزعم أنه يفهم أصوات الحيوان، وهل يعلم ذلك أحد إلاّ الله؟[١٢٧].

ونعيد ما أسلفنا من القول بهذا الخصوص من أن ما يمكن أن نجده من سخرية بعزيز الدولة ليس أكثر من فرض أو احتمال يمكن أن يصح، ويمكن ألا يصح، وإن كنّا نرجّح ذلك وفقا لرأي أبي العلاء في الحكام والولاة كما رأينا.

واذا تركنا العزيز ألفينا اشارات كثيرة تمتاز بالطرافة التي حرص عليها أبو العلاء، وأنطق بها شخوصه الحيوانية، لعل أبرزها وصف أحوال الجافلين بالضرورات الشعرية[١٢٨]، والزحافات العروضية[١٢٩] ووصف عزم زعيم الروم على غزو حلب بالعروض كذلك[١٣٠].

ولعل من أطرف الصور التي تلقانا في الرسالة صورة الشاحج في الجفلة إذ يقول: «ثم يجيء رسول المُلاّك فأقرّب الى ما هو شرّ عليّ وأشقّ: أوتَى بأشياء كثيرة مختلفة يراد مني أن أسير حاملا لها في الرفقة، منها جُربة فيها جَشب من الطعام وسفيح قد ملئ من الأسفار، ومخلاة عظيمة قد أخذت فوق ما تحتمل من العسوم، وقراطف أخلاق، وبراجد وضروب مما لا أعلم الاّ أنها مثقلة، ولا أطيق. فأُحَمّل وأنا أفكر وآسف على ما كنت فيه، وأتمنى العودة الى هذا المدار: والحمل يتساقط ويتواقع، كما قال سعد بن مالك:

وتساقُطَ التَّنْواط والـــــــــــــــذ	نبات إذ جُهِد الفِضـــــــــــــــــاحُ
مَن فـرَّ عن نيرانهـــــــــــــــــا	فأنا ابن قيس لا بــــــــــــــراحُ

(١٢٧) الرسالة ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(١٢٨) الرسالة ٤٣٤ ـ ٤٤٨.

(١٢٩) الرسالة ص ٤٤٧.

(١٣٠) الرسالة ص ٦٠٨.

فيلهمني الله تعالى أني لا أخلص الاّ بسوء الخلق وألتفت فأرى عجوزا تريد أن تركب على ذلك الحِمل، أو شيخا شرّا من تلك العجوز:

سليمي أنت في العير قفي أن شئت أو سيري

فأمّا أنا فما عندي من نطيش. وآخذ عند ذلك في ضرب الندّ والزَّمّ خَسَازَكا..

والذين أرادوا تحميلي قيام ينظرون ويقولون: ما كانت هذه له بعادة:

وقد زعمت أني تغيرّت بعدها ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيرّ

فأضرب عصيًا كثيرة وأنا لا أزيد على خبط الأرض بالحوافر، فليت شعري على أيّ صرعيّ أقع؟ هل أُترك وما أريد، أم أُحمل على شصاصاء؟[131].

ومن ذلك ما يقوله على لسان أبي أيوب في حواره الطريف مع الشاحج عن صلاح الديك: «والديك لا يُرتاب في أنه من صلحاء الطير. ألم تبلغك تلك الحكاية أن امرأة سمعت قول الشاعر:

وكأس عقار يحلف الديك أنها لدى المزج من عينيه أصفى وأنور

فقالت: الديك من صلحاء الطير ولم يكنت يحلف الأصادقا[132] .

---

(١٣١) الرسالة ٤٥٦ ـ ٤٥٨.

(١٣٢) الرسالة ٢٤٥.

الخـيال:

وإذا تركنا السخرية والتهكم والطرافة الى خصيصة أخرى من خصائص الرسالة وجدنا الخيال.

والخيال من أهم خصائص الأدب العلائي، ذلك الخيال العبقري الذي ولّد رسالة الغفران، تلك الرحلة الخيالية الطريفة الى العالم الآخر، والتردّد في جنبات المحشر، ووصف ما فيه من أهوال تشيب لها الولدان، والتجوال في أرجاء الفردوس، ولقاء من غفر لهم من الأدباء واللغويين والنحاة، ومجادلتهم ومحاورتهم في مختلف الآراء والأقوال التي صدرت عنهم، أو قيلت فيهم، وإبداء الآراء التي يراها في أدبهم وسير حياتهم، وإثارة الصراعات والمهارشات بينهم، على نحو ما نجد في خلافات ابن القارح مع رؤبة، وصراعات النابغة الجعدي وأبي بصير ـ الأعشى ـ [١٣٣] وغير ذلك. والاطّلاع على سواء الجحيم ومشاهداته فيها من حقّت عليهم كلمة العذاب، ومحاوراته معهم .. كل أولئك وما يتصل به من مشاهدات وأحداثٍ ضروبٌ رائعة من الخيال العبقري الذي يشهد بقدرة أبي العلاء وابداعه وتفنّنه المعجز.

بيد أن الخيال في أيّ مصنّف آخر من مصنّفات أبي العلاء لا يرقى الى مستوى الخيال في الغفران. وربما كان للفارق الزمني بين الغفران وبين تلك المصنفات أثر في روعة الخيال، وكذلك الغرض والموضوع اللذين يكونان وراء كتبه. وكما رأينا، فالصاهل والشاحج كتبت قبل زهاء اثنتي عشرة سنة من كتابة الغفران، وهي فترة طويلة قادرة على ترك آثارها واضحة في خيال المعري فيها، اضافة الى اختلاف الغرض والموضوع بينهما مما يجعل الخيال في الغفران لا يدانيه خيال الصاهل مثلا.

ولعل من أبرز ملامح الخيال في رسالة الصاهل والشاحج الدقة والطرافة التي تتجلّى في الحوار الذي يجريه بين شخوصه، على نحو ما نجد في حوار الصاهل والشاحج عن الخنولة ورفضها وما تبعه من ردّ مشفوع بالأدلة والبراهين والاشارات [١٣٤].

(١٣٣) رسالة الغفران ٢٢٧ وما بعدها. (١٣٤) الرسالة ١٦٥ ـ ١٧١.

ومن ذلك حديث المضيرة والهريسة وغيرهما من صنوف المأكولات ولعله من أطرف صور الخيال في الرسالة، يقول: «لو جاز أن تتكلم المضيرة لجاز أن تخطب الهريسة فتقول إذا وضعت بين القوم :« رفقا رفقا، لقد لقيت من بني آدم بديعا، ضربوني بالمخبط كأني زانية أو مفترية، ثم قرّبوني بعد ذلك فأكلوني. الأكلُ سَلَجانٌ، والقضاء لَيّان، يا ابن آدم أكلا أكلا وشربا شربا. سوف يأكلك القدر ويشربك، ولكل أجل كتاب. ولو خطبت الهريسَة، لجاز أن تكون السَّكباج صاحبة خبر على طاهي السلطان، فتنهى اليه ما صنع في مطبخه من خيانة وتفريط ولو فعلت الصفصفة ذلك لم يمتنع أن تغنّي الطباهِجَة، ولجاز جن يوضع الحَمَل على الخوان فيسأله الحاضرون لأكله: كيف كان تنّورك؟ فيقول: كان حارًا منضجا، ويخبر عما أخذه من الملح، أبقدر كاف أم بسرف أم بتقصير؟ ويقول لبعض الآكلين: كل من موضع كذا مني فإنه أطيب وأنضج. ولجاز أن يخبر عن حرارة المدية، وهل أحسّ بَرْدَ حديدها في وَدَجَيْه؟ ولجاز أن يحدّث عن حاله في السَّمْطِ، وهل كان الذي فعل به ذلك رفيقا فيما صنع أم عنيفا؟[١٣٥].

وتأمل هذه الصورة الرائعة التي يرسمها لوسوق الجالين، حيث يشبهها في اضطرابها وعدم اعتدالها باختلاف اشطار الرجز طولا وقصرا في الأرجوزة الواحدة فيقول: «فذلك مثل وسوق الجالية لأنها ليست تعتدل اذ كانوا ليسوا أهل ظعن وارتحال فيعرفوا أمر الايساق، ويمنعهم الخوف من الأناة. فاذا كان الأمر على ما أصف أسرع الانكسار الى ما يحملون من الخزف والزجاج، لأن وسوقهم لايمكن فيها التعديل فان كانت لك ياسعال رغبة في الكافح أو البن فتتبع آثار الجالية فانك لاتعدم جرة كسيرا قد أجتهد صاحبها أن تثبت له في الوسق فأعْيت عليه، وزلَت في ذلك إلى الأرض، أو علقها باذنها فضعفت أن تحملها فلقيها القهقرّ في الأرض الجرولة، فرأيت خبيئها وقد طلي به وجه الأمعز، وكان وربّما البائس قد أعدّه ليطلي به رغيفا بعد رغيف، كما ضمّخ وجه المترف من الملـوك بالغالية وفنيق الأناب[١٣٦].

(١٣٥) الرسالة ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(١٣٦) الرسالة ٤٣١ ـ ٤٣٢. القهقر: الحجر الصلب، الأمعز: المكان الصلب الكثير الحصى. فينق الاناب: كريم المسك او الطيب.

ومن ذلك الدعاء الطريف الذي يلحّ به الشاحج على أبـي أيوب[137]، والدعـاء له[138] وكذلك دعاؤه على الصاهل وما يمتاز به من طرافة الخيال وروعة التصوير، وكذلك دعاؤه على الفاختة لسعايتها عليه لدى أبي أيوب[139].

ومما يتصل بهذا الجانب قدرة أبي العلاء على تأصيل الحوار بين شخوصه المسرحية وانهائه والتمهيد لدخول شخصيات جديدة على مسرح الرسالة تمهيدا دراميا مناسبا؛ ونكاد نجد هذا عند ظهور أي شخصية من شخصيات الرسالة، كما نرى عند دخول الفاختة وأبي أيوب والضبع والثعلب...

(١٣٧) الرسالة ٢١٤.

(١٣٨) الرسالة ٢١٦ ـ ٢١٧.

(١٣٩) الرسالة ٢١٨ ـ ٢١٩.

النقد الاجتماعي:

ومن الجوانب المهمّة في الرسالة النقد الاجتماعي. ولكنه لم يظهر في صورة تذكرنا بما في اللزوميات، لأن نظرته الى الناس والمجتمع في اللزوميات كانت متكاملة ودقيقة، فعالج جوانب الحياة الانسانية معالجة دقيقة وشاملة وحصيفة. أما في الصاهل والشاحج فقد ظهرت آثار النقد الاجتماعي باهتة لا تدلّ بحال على شخصية المعري ونفسيته اللتين نجدهما في اللزوميات وذلك يرجع الى أنه أنشأ اللزوميات لنفسه، فصوّر آراءه وأفكاره ومعاناته خاصة في الحياة والأحياء، ولم يكد يترك طبقة من طبقات المجتمع دون أن يسلقها بألسنة حداد، ويكشف مساوئها ويعري عيوبها، حتى أنه لم يكد يترك عيبا من عيوبهم الاّ أشار اليه وبينّ أثره في حياتهم وسلوكهم. أما رسالة الصاهل والشاحج فلم ينشئها لنفسه، ولم يخلص فيها لآرائه وأفكاره، لأنه وجهها الى أحد ولاة حلب في عصره، وهو من طبقة الولاة والحكام التي سلّط عليها أضواء كاشفة من نقده في اللزوميات. وعلى الرغم من ذلك فقد حظيت الرسالة ببعض نقداته الاجتماعية التي تأبى الاّ أن تتساقط من مفتاح النفسية العلائية بين الحين والحين، ومن ذلك قوله ينقد الناس على لسان الصاهل من: «أن زماننا مذ كان، للكذب فيه سوق ليست للصدق، والباطل عنده مسالك زويت عن الحق» [١٤٠].

حتى المرأة التي حظيت في اللزوميات بقسط وافر من نقده ودعوته العريضة للزهد والعزوف عن النسل بله الزواج، وأنه اذا لم يكن من الزواج بدّ، «فخير نساء العالمين عقيمها».. لا نكاد نجد لها أثرا في الرسالة، وكل ما نجده من اشارات عن المرأة حديثه عن الحور العين وماهيّتهن. والذي يلفت النظر في حديثه قوله: «وما بلغت لأحد من أهل الأرض بغضه النساء والغنى عنهن أن يبغض الحور العين.. ولأيّ شيء يبغضهن وهن لم يرين قط، ولم يظهرن لبني آدم وهم في الحياة» [١٤١]

---

(١٤٠) الرسالة ٢٠٢.

(١٤١) الرسالة ٣٢٢.

وفي حديثه عن المرأة نجده يذكر بعض أقوال العرب في المهور، ويشير الى آرائهم في المرأة، ومكانتها وقضية الوأد، فيذكر قول الراجز:

انى وان سيق اليّ المهـر   عبد وقينات وذود عشـر
أحبّ أصهاري اليّ القبر[١٤٢].

واشارة أخرى الى الاماء وحصانهن، وأن الأمة انما تعاب «اذا كانت مبتذلة، فأما اذا حصّنها مولاها فلا فرق بينها وبين الحرّة»[١٤٣]

وهذه، كما نرى، آراء سطحية ساذجة لا تصوّر أي جانب من جوانب موقفه الفكري من المرأة في اللزوميات.

البلاغة والرمز والتمثيل:

بقي في هذه الدراسة جوانب ثلاثة نود أن نوجز القول فيها ايجازاً شديداً، وهي: الجانب البلاغي والرمزى والتمثيلى وما تصل به من القدرة على انشاء الحوار بين شخوصه.

أما الجانب البلاغي فلعل من السرف والاطالة الاشارة اليه في رسالة الصاهل والشاحج أو غيرها من مصنفات أبي العلاء، إذ أن هذه الخصيصة تعتبر من أبرز خصائص الأدب العلائي، شأن الجانب الثقافي واللغوي والفكري.

ولكن ما دمنا بصدد تعداد بعض الخصائص الفنية في هذه الرسالة فاننا نودّ أن نشير الى بعض النماذج البلاغية فيها لتعطي صورة سريعة للجانب البلاغي فيها.

(١٤٢) الرسالة ٥٧٥.

(١٤٣) الرسالة ٣٣٦.

ومن قراءة الرسالة نتبين عنايته بالمحسنات البديعية المتنوعة حتى لا تكاد تخلو منها صحيفة أو فقرة من فقراتها.

ولعل أبرز تلك الألوان البديعية الجناس والسجع والأزدواج والطباق، الى جانب الصور البيانية الطريفة التي يرسمها على ألسنة شخوصه.

ونكتفي بمثل واحد من الرسالة يبرز الجانب البلاغي بوضوح وهو قوله على لسان أبي أيوب: «البعير انما قيل له «جمل» لأنه يَصْبِرُ ويتحمل ويجمل. وليس للبهائم الراعية من اذن واعية. ما أفرّق بين نيّة معتمر وغاز، فكيف أشعر بمكان الألغاز؟ لم تترك مناصاة السلمة من حصاة لحفظ الكلمة. وما يلج قولك الثاني في مسمعي. الاّ والأول قد محى من خلدي. فاطلب لرسالتك غيري. والصاهل عجز عن حمل الأخفّ وهو المنظوم، فكيف أحمد الأثقل من النثر، ولو بيوتا من الشعر كثيرة».[١٤٤]

ونلاحظ حرصه على السجع والجناس والأزدواج والطباق، وقد حشدها حشدا في هذه الفقرة يدل على عناية فائقة لتوفير عناصر الابداع والجمال لأسلوبه.

ولا تظنّ أنه كان يتعب نفسه أو يجهد فكره أو يعنت خاطره في صنع هذه النماذج الفنية، وانما كانت تصدر عن قدرة فائقة، ومهارة بالغة، وامتلاك لناصية الفن والتعبير، وتصرّف بالغ بالألفاظ على نحو ما نجد في سائر مصنفاته.

أما الجانب الثاني فهو الرمز في الرسالة.

ومن يقرأ الرسالة يتبين أن أبا العلاء حرص على الرمز حرصا واضحا لا نكاد نجد له شبيها في سائر مصنفاته. ولسنا نعني مطلقا أن الرمز فيها قد بلغ درجة من الدقة والكمال والاتساق، وكل ما نحسبه أنه حاول أن يرسم رموزه فيها، ولكنه لم يوفق الى الصورة المتكاملة لها، والتي تتفق في جميع أحداثها.

---

(١٤٤) الرسالة٣٧٥.

وأول ما يلقانا من رموزه رمز البغل وما يلاقي من عناء، ويكابد من شقاء.

ورمز البغل قد يقع على الشعب أو الطبقة المحكومة المسحوقة التي كانت تخضع لحكام حلب الكثيرين الذين كانوا يترددون عليها كما رأينا. وقد يظهر ذلك من خلال هذه العبارة التي وردت على لسان الثعلب في مقارنته بين عزيز الدولة وزعيم الروم، وان مثلهما «مثل بازيين، لكل واحد منهما فرق من الطير، تحمل اليه الاتاوة، وقد تعاقد البازيان الاّ يعرض واحد منهما لما في حيّز الآخر من الخشاش؛ فالطير، لما هي عليه من الخفّة، والجهل بغوامض الأمور، اذا رأت البازي الذي ليست هي في ملكه قد نظر الى شطرها من غير تعمّد، أدركها من الفرق بالطبع ما يحملها على ترك الوكنات، وطيرانها في الآفاق. وهي لا تعلم بما في نفوس البازيين» (١٤٥).

أما بالنسبة للصاهل القادم من مصر فقد يكون رمزا للعلية، أو رمزاً للعلاقة بين الفاطميين وأهل حلب وما يشوبها من استعلاء بدا واضحا في انكار واشجة القربى التي تصل بينه وبين الشاحج عندما أنكر خئولته له. كما أنه قد يكون رمزا للتظاهر بعودة العلاقة الطيبة بين الفاطميين وعزيز الدولة، حيث أن مقدمه كان مصر، ومحرده أو مقصده عزيز الدولة. وصلة أهل حلب بالفاطميين واضحة من خلال سيطرتهم على حلب وخضوعها لسلطانهم.

ولا ننسى من هذه الرموز أبا العلاء الذي كان الشاحج رمزه بعلمه وصبره على الأذى واحتماله المشاق، وعزمه على عدم الرحيل مع الجافلين كما أعلن في رسالته لأهل المعرة، وكذلك سعيه لغيره. كما يبدو هذا الرمز العلائي من وصف الشاحج في فاتحة الرسالة حيث جعله معصوب العين، يعاني من البؤس والشقاء الذي كتب عليه، ويتمنى الخلاص منه (١٤٦) وهذه الأوصاف وثيقة الصلة بأبي العلاء .

---

(١٤٥) الرسالة ٤١٥ ـ ٤١٦.

(١٤٦) الرسالة ص ٩٠.

كما يشرك البصير الشاحج فى الرمز بطبقة المسحوقين وما تمخض عنه من تألف الطبقات المسحوقة ممثلة في صلة الشاحج الطيبة بأبي أيوب بعد سوء التفاهم العابر الذي وقع بينهما نتيجة لبعض الدسائس التي دبّرتها الفاختة، والتي قد تكون رمزا للحاشية أو البلاط وصلتها بالصاهل ممثل الفاطميين أو رمزهم فيها .

و على هذا النحو فقد تكون الرسالة رمزا للصراع الطبقي والصراع السياسي كما عاشهما أبو العلاء بكل أحاسيسه ومشاعره.

وربما تأتي سخرية أبي العلاء من هذه الطبقات على ألسنة شخوصه لتهالكهم على حطام الدنيا ونسيانهم ظلم عزيز الدولة وغيره من ولاة حلب وحكامها، وما يكابدونه من بطش الروم في غزوهم الكثير لهم، وكذلك نفاقهم على نحو ما وجدنا في وصف عزيز الدولة وزعيم الروم وشعبيهما.

وقد تكون صداقة الثعلب والشاحج رمزا لتعاطف طبقات العلماء والأدباء وغيرهما من طبقات المجتمع.

بيد أن هناك رموزا أخرى تتعلق بشخصيات أخرى في الرسالة مثل الضبع والثعلب والفاختة، وربما صحّ فيها ما رأيناه، وربما كانت رموزا لجوانب أخرى، فالضبع رمز لطبقة منحطة جاهلة من طبقات المجتمع، والثعلب لطبقة أخرى وظيفتها تقصّي الأخبار بمختلف الأساليب الماكرة، والفاختة لاشتهارها بالكذب فقد تكون رمزا لطبقة الحاشية.

على أية حال فقضية الرمز في رسالة الصاهل والشاحج، كما ذكرنا، قضية شائكة، لأنها مجرد احتمال وفرض، قد يصحّ في بعض جوانبه، وقد يخطيءُ... ولكن الذي نعتقده أن لتلك الشخوص أو لأغلبها خلفيّات نفسية أراد أبو العلاء التعبير عنها وتصويرها، وقد وفّق في ذلك، ولكننا لا نستطيع أن نقطع بها لعدم توفّر دلالاتها وعدم اتّساق رموزها في جميع جوانب الرسالة. وهي فكرة نعرضها للبحث والتأويل واستكشاف العلاقات والدلالات.

أما آخر الجوانب فيها فهو التمثيل وما يتصل به من الحوار.

ومن قراءة الرسالة نتبين أن أبا العلاء جعل لها مسرحا محددا لم تبرحه شخصيات الرسالة الاّ عند انتهاء أدوارها سواء أكانت أدوارا جزئية أم كلية، وهو منطقة حلب، أو مكان فيها محدّد، لعله حماة حيث يقيم الشاحج يجهد في إخراج الماء من تلك الأرض.

ويبدأ المشهد الأول من مسرحيته ويزاح الستار عن أحد شخوصه أو قل، بطل مسرحيته، وهو الشاحج في صورة درامية رائعة التفاصيل، حيث جعله معصوب العينين يناجي نفسه بما يكابد من شقاء وعناء، ويبوح بأمنياته المتنوعة التي يأمل منها الراحة من ذلك العناء. ونفهم من حواره الذاتي عزمه على الشكوى لعزيز الدولة عسى أن يخفف عنه بعض الأرق الذي ينوء تحته. وبحركة موسيقية رائعة تصدر عن وقع حوافر الصاهل يحسّ الشاحج بشخص آخر على خشبة المسرح، ويبدأ بينهما حوار طريف وطويل يدور حول شكواه وخنولته له، ويتأزّم الموقف بينهما، وينتهي المشهد الأول باعلان الشاحج رغبته في الرد على الصاهل ثم يبدأ المشهد الثانى بحوار بين الصاهل والشاحج يبدأ فى الصباح يكون استمرارا لما دار فى المشهد الأول باستطرادات كثيرة وحوار طويل، وينتهى المشهد بأن يحتدم الصراع بينهما مما يستدعى طلب حكم يقترح الصاهل أن يكون الفاختة: وكأن أبا العلاء يمهد لدخول شخصية جديدة الى مسرح الرسالة.

ولكي يثري أبو العلاء الصراع ويغني الحوار نجده يجعل الشاحج يرفض حكومة الفاختة لاشتهارها بالكذب، ويتأزم الموقف الدرامي على المسرح بحركة درامية رائعة تحدثها الفاختة، عندما تغمز بطرف عينها للصاهل لتوقع بين الشاحج وبين أبي أيوب الذي يريده الشاحج حكما. ونلاحظ هنا كيف يمهد لدخول شخصية جديدة الى مسرح الرسالة دون أن يغير من المشهد شيئا، وكل مايفعله انه يخفى بعض الشخوص، ويبقي على بعضها. ويقتحم أبو أيوب المسرح بحركة درامية عنيفة تمثل هياجه وهجومه على الشاحج وأزم جفلته. وتبدو هنا مهارة أبي العلاء في احداث الاثارة اللازمة لاثراء التفاعل والحوار بين شخوصه، وقدرته على تحريكها.

ويدور حوار طويل وطريف بين الشاحج وأبي أيوب ليهدّئ من ثورته حتى يتمكن من اقناعه بحمل رسالته الى عزيز الدولة.

ويطول هذا المشهد طولا مسرفا حتى ليبلغ ربع الرسالة كما رأينا.

وقريبا منها كانت تقف شخصية جديدة تتأهب لصعود المسرح وهي الضبع التي تعجب بعلم الشاحج وعبقريته من خلال الحوار الطريف بينه وبين أبي أيوب. ويمتاز الحوار في هذا المشهد بشيء كثير من السخرية.

ويميل أبو العلاء الى الايجاز في الحوار عند ظهور الضبع، ثم تختفي هي وأبو أيوب ليبدأ المشهد الرابع مع ظهور شخصية الثعلب.

ويدور حوار طويل بينه وبين الشاحج، يبدؤه ثعالة ببشارة تخفيف الأثقال عن الشاحج. وتتناهى في أثناء ذلك أصوات ضجّة في المصر يرسل الثعلب لتقصي اخبارها، فينطلق غير بعيد ليعود بما تحدّث به العامة من عزم ملك الروم على غزو حلب، ويدور حوار طويل بينهما عن الغزو والجفلة، وينتهي المشهد لينصرف الثعلب ليأتي بأخبار الجالين التي جعل لها المشهد الخامس. كما جعل المشهد السادس لتصوير أحوال الجالين عند عودتهم، ويأخذ الثعلب الحوار ويمضي به حتى نهاية الرسالة.

وقد حرص أبو العلاء على حل عقدة مسرحيته فى اثناء حوار الثعلب والشاحج ولذا لم يسأله عن رسالته التى كان يريد ارسالها الى العزيز، برغم تذكير الثعلب بها ، وذلك بعد أن تحققت طلبته بالمياسرة والموادعة مع أصحابه.

ارسالها الى العزيز، برغم تذكير الثعلب بها، وذلك بعد أن تحققت طلبته بالمياسرة والموادعة مع أصحابه.

هذه هي مسيرة الحوار في رسالة الصاهل والشاحج، ولكنها ، مع تحقّق الحوار فيها بشكل واضح ومتقن في بعض الجوانب، فقدت كثيرا من مقوّمات العمل المسرحي المتكامل.

وأول ما يلاحظ فيها أن الفوارق بين المشاهد فوارق زمنية كما في المشهدين الأول والثاني، وأن ظهور الشخوص واختفاءها هو الذي يحدد المشاهد، ويوجد الحوار.

وأحيانا أخرى تنسحب الشخوص من على المسرح دون اشارة أو اشعار من المؤلف، من مثل دخول الفاختة واختفاء الصاهل ودخول أبي أيوب واختفاء الفاختة.

كما لم تظهر أكثر من شخصية واحدة على المسرح، اضافة الى الشخصية الدائمة «الشاحج» الاّ عند ظهور الضبع، حيث اجتمع الشاحج وأبو أيوب والضبع، ودار بينهم جميعا حوار واحد، وان كان قصيرا محدودا، قياسا الى ما كان يدور من حوار بين ـ سائر الشخوص فيها.

كما أن الحوار غلب عليه الاستطراد والتطويل. وهما من أهم مساوئ العمل المسرحي.

كما نجد فيه فجوات واسعة تبلغ أحيانا ربع الرسالة كما في تأويلات أبي أيوب.

على أية حال فنحن نعتبر هذه الرسالة عملا فنّيا مسرحيا تجاوزا.

والحقيقة أنه، إذا أمكننا أن نجد في بعض مشاهد الغفران جانبا تمثيليا واضح المعالم، مبرّأ من الاستطراد والتطويل، فاننا لن نجد مثل ذلك في رسالة الصاهل والشاحج فيما وراء المشهد الذي ظهرت فيه الضبع، وان امتازت بالحوار الذي استقطبها، والذي أنشأه بين شخوصها المحدودة خلافا للغفران التي وجدت فيها جوانب كثيرة تخلو من كل أثر مسرحي أو تمثيلي مع تهيّؤ الظروف الفنية، وبخاصة تعدّد الشخوص التي تثري الحوار وتطوّر الأحداث.